روايات عبير



أميرة الورد

آن ميثر

صحراء الثلج



٤٧

liilas.com

روايات عبير

HARLEQUIN – "ABIR" – No. 47

صحراء الثلج

[illegible]

إليه في المستشفى حيث ينتظر عملية جراحية حاسمة؟

أميرة الورد

لبنان	[illegible]	الكويت	[illegible]	اليمن	[illegible]	السودان	[illegible]
سورية	[illegible]	الإمارات	[illegible]	تونس	[illegible]	U.K.	£ 1
الأردن	[illegible]	البحرين	[illegible]	ليبيا	[illegible]	France	F 10
العراق	[illegible]	[illegible]	[illegible]	المغرب	[illegible]	Greece	Drs 120
السعودية	[illegible]	[illegible]	[illegible]	مصر	[illegible]	Cyprus	[illegible]

www.liilas.com

العنوان الأصلي لهذه الرواية بالانكليزية

LEOPARD IN THE SNOW

© ANNE MATHER 1974
© 1982 Harlequin (Cyprus) Ltd.

حقوق التأليف: آن ميثر

جميع حقوق الطبع والنشر والاقتباس والترجمة محفوظة
لهارلكوين (قبرص) المحدودة

المراسلات:

Harlequin (Cyprus) Ltd.
29 Michalakopoulou St,
Athens T.T. 612, Greece

Printed in Great Britain by
Richard Clay (The Chaucer Press) Ltd. Bungay, Suffolk

www.liilas.com

أميرة الورد

١ - ضائعة في الثلج

السكان المحليون يراقبون وينتظرون رحيل الزائرين وهي تتذكر تلك البقعة من منطقة البحيرات لما كان والدها يحتفظ بمركب في "باونيس" عندما كانوا يعيشون في "لندن" وكانوا يرجعون إلى تلك المنطقة بعد انتهاء العام الدراسي كان والدها يعلمها قيادة المراكب وربما "هيلين" تستعيد الماضي كانت تبدو لها تلك الفترة من أجمل أيام حياتها. كان ذلك قبل أن يصبح والدها طموحاً ويوافق على انضمام شركته الصغيرة إلى شركة "تروب القابضة" ويتزوج أرملة تروب، ويصبح رجلاً غنياً لا يهمه إلا الاجتماعات والحفلات [illegible] من رياضة التزلج.

لكن الجبال كانت في هذا الوقت بيضاء. لا يعني أن الثلج كانت تتساقط منذ عدة أيام وحتى البحيرات كانت مغطاة بطبقة رقيقة ناصعة. وعندما توقفت "هيلين" عند آخر قرية مرت بها لتسأل عن طريق "باونيس" كانت قد ابتعدت كثيراً عن الدرب الأصلي ولم يكن هذا يستغرب لأن كل اللافتات التي توضح الطريق مغطاة بالثلج ولم تحاول الخروج من سيارتها الدافئة لتمسح الجليد عن اللافتات لتستوضح طريقها. إنها تعرف الآن بخطئها. لكن ذاكرتها لم تستطع أن تستعيد عشرات الطرق الفرعية وخاصة أنها تبدو جميعاً متشابهة في ظروف الطقس السيئة، ولا بد أنها اتخذت الكثير من المنعطفات الخاطئة.

عند ذلك تذكرت والدها في الغد سيكتشف أنها غابت ليلة كاملة؟ هل سيكتفي بالرسالة التي كتبتها له شارحة حاجتها للانفراد بعض الوقت. أم سيحاول البحث عنها إن الأسبوع الأخير من الأربع. والدها ليس ذلك النوع

من الرجال الذي يمكن أن يقف في طريقه. وهو بلا شك سيغضب بشدة الآن لأن ابنته الوحيدة تحاول أن تتحداه.

لكن التساؤلات تعود عليها بصيغة: إنها تهرب نفسها بتكرارها في الذهاب [illegible]. كانت الأماكن التي تشغل تفكيرها في السنوات الأخيرة من القرية وجنوب فرنسا. لهذا كان والدها سيبحث عنها سيكون ذلك في الأماكن السابقة. لأنه يعلم أنها تحب الشمس والسباحة والمراكب الشراعية. ولن يتوقع أبداً أن تتذكر ذلك المنزل الصغير الذي أخذها إليه وهي طفلة في السنوات التي تلت وفاة والدتها. وهو بالتأكيد لن يتوقع أن تقود سيارتها في هذه العاصفة الثلجية العنيفة.

وقطبت جبينها وقالت لنفسها: إذا كان هذا الطريق يؤدي إلى مزرعة فيمكنها أن تطرق الباب وتستفسر عن كيفية الوصول إلى أقرب قرية. إنها لا تتوقع الآن أن تصل إلى [illegible] الليلة بالذات.

وأوقفت السيارة بدون أن توقف المحرك، وبدأت تزيل الثلج الذي تراكم على الماسحات، وأحست الثلج بأصابعها وشعرت بالبرودة الشديدة ثم ركبت السيارة مرة أخرى وهي تشعر أنها خاطرت بحضورها في السيارة، ولهذا كان من الأفضل أن تسافر بالقطار لكنها لم تكن تريد أن تخاطر بأن يتعرف عليها أحد في المحطة ويخبر والدها عندما يكتشف غيابها ويبدأ في السؤال والبحث عنها.

توقفت الماسحات مرة أخرى وكانت مضطرة إلى النزول لتنظيفها. كانت في المرة الأولى قد نظفت الماسحات وهي مستندة إلى الباب لكنها في هذه المرة أخذت تمشي [illegible] الطريق [illegible] السيارة، وربما هي تفعل ذلك توقف محرك السيارة.

نزلت من السيارة ووقفت وسط الثلج الكثيف الذي كان يلامس طرف سروالها الأحمر الطويل إلى أعلى، [illegible] وتجري على أكتافها وهي تنظف الثلج بسرعة عن الزجاج الأمامي لتطمئن إلى أن الماسحات ستعمل ولم [illegible] الضرورة استغرقت بضع لحظات أخرى في [illegible] ثم أدارت مفتاح الاشتعال. دار المحرك ولكن السيارة لم تتحرك. جربت مرة أخرى بلا فائدة. تحركت

بالظروف يسري في عروقها، ما الخوف على [illegible] السيارة، هذا لم يحدث من قبل. فالسيارة ليست قديمة ولكنها لم تواجه مثل هذه الظروف من قبل. وبعد محاولات أخرى توقفت، وكان الوقت بدأ يتأخر وبعد قليل سيحل الظلام وهي لا تستطيع المجازفة بالبقاء في هذا المكان على أمل أن يأتي أحد لانقاذها. لم تكن هناك أية إشارة إلى أن أحداً قد مر بهذا الطريق. وقررت أن التصرف الأسلم بالنسبة إليها هو أن تترك السيارة وتبحث عن المساعدة. لأنها لم [illegible] ولم [illegible] أحد شاهدها من المحتمل أن تتراكم الثلوج طوال الليل إلى أن تغطيها تماماً. ستبحث من أين [illegible] حتى الموت في هذه الطريقة. وأخذت ترتدي معطفها مرة أخرى وهي تقول لنفسها إنها مغامرة مجنونة. كانت [illegible] من كان يتصور عندما تركت [illegible] هذا الصباح أنها ستكون ضحية سيارة معطلة في عاصفة ثلجية؟ إن [illegible] نفسها على [illegible] في الاحتفاظ وعدم إمكان والدها العثور عليها ستتطلب منها [illegible] صورة.

خرجت من السيارة وهي ترتدي معطفها الأحمر الثقيل، المصنوع من الكشمير والمبطن بالفراء، وأخذت تطمئن نفسها إلى أن اللون الأحمر يظهر جيداً بين الثلوج ومن الممكن أن يلفت نظر أحد حتى لو لم تر هي. رفعت قلنسوة المعطف على رأسها وأخفت بداخلها خصلات شعرها الأسود الطويل. ثم لبست قفازها المصنوع من الفراء وظهرت [illegible] حتى ركبتيها وأخذت تمشي [illegible].

ونظرت إلى الطريق المهجور. كان من غير المجدي أن تعود أدراجها لأنها كانت تعلم أنها لن تقابل أحداً لعدة أميال. إذن فلا مفر من التقدم.

وكانت تقول لنفسها إنه ليس ممكناً أن تسير كل هذه المسافة بدون أن تقابل أي منزل أو إنسان ولكن هذا ما حدث فعلاً. هذا الطريق المتعرج [illegible] بسرعة عن نظرها ومن المحتمل أنه يلتف حول أحد الجبال. إنها تشعر بأنها تصعد جبلاً الآن. ساقاها تؤلمانها ولكن ليس أمامها طريق آخر.

ثم توقفت ونظرت إلى ورائها ولم يكن ممكناً تمييز أي شيء. اختفت آثار [illegible] تماماً وبدا واضحاً أن اللون الرمادي الذي بدأ يظهر في السماء لم يكن بسبب ظروف الجو السيئة فقط ولكن علامة المساء بدأت [illegible] والأمل في العثور على مكان تبيت

liilas.com

له لا يبدو كبيراً وشعرت بالذعر. ماذا ستفعل؟ هل يتقدم منها الشر لأنها أفلتت من والدها في أن يختار لها زوجاً؟

وأحست أن شيئاً ما يتحرك. وبطرف عينيها رأت أنه شيء مكور وأطلقت ساقيها. ماذا كان ذلك؟ من المحتمل أنه حيوان يبحث عن طعامه. يا للحيوان المسكين! أي طعام يمكن أن يجده تحت كل هذه الثلوج. رفعت يدها لتمسح عينيها من الثلوج المتساقطة وحاولت أن ترى. تأكدت أنه حيوان وقد يكون معطفها الأحمر لفت نظره. قد يكون كلباً. إنها تزعم ذلك. وقد يكون صاحبه قريباً وأخذت تصلي وتأمل.

كان هذا الكائن يقترب نحوها. إنه يبدو ككلب. لونه أصفر غريب وأثناء اقترابه تبينت أن فيه بقعاً سوداء أيضاً. لا بد أنه نوع من الكلاب الضالة الصغيرة. وفجأة شعرت بأن ساقيها لا تقويان على حملها والخوف والرعب يتملكان كيانها. ليس كلباً إنه ليس حيواناً أليفاً. إنه فهد أو ربما النمر. تسمرت في مكانها ولم تستطع حراكاً. تلك القشة المتحجرة بلا صوت ترمقها. حركت رأسها يسرة ويمنة لا أمل في ... كبريائه لأنها لا تعلم أو تتخيل. لا بد أن يلامس الثلج الناعم معطفها لتتحمل ذلك. لا يمكن أن يكون حقيقة. إنه لا يصدر أي صوت.

ولكن باقترابه استطاعت أن ترى أكتافه القوية وعضلاته تتحرك تحت شعره الناعم. وتصورت أنها تشعر حتى بحرارة أنفاسه. فتهيأت رعباً ثم ارتكبت التصرف الخاطئ الذي تعلمت دائماً ألا تفعله في مواجهة حيوان مهاجم: استدارت لتركض..

تعثرت في الثلوج المتراكمة إلى جانب الطريق وشقت طريقها خلال الشجيرات الثاني وهي تشعر بالأغصان تجذب شعرها وتخدش خديها بعنف. ولكن لم تكن من فكرة أن يلحق النمر الغاضب في عقبها وزادها الخوف قوة فاندفعت للأمام. ولكن الثلوج المتراكمة في الحقل الممتد كانت تعرقل تقدمها. وكانت تتوقع أن تشعر بأنياب النمر الحادة تغرز في رقبتها ومخالبه توقع بها. وأحست بالاختناق. وتصاعدت العبرات إلى عينيها وتذكرت بمرارة أنها ما كان يجب أن تتركه لكن هذه هي نتيجة التصرف الآن..

أميرة الورد

ثم تعثرت قدمها في جحر أرنب ففقدت توازنها وسقطت. وحاولت أن تزحف وهي تبكي. وبينما هي في هذه الحال سمعت صوتاً كانت تعتقد أنها لن تسمعه مرة أخرى. صوت إنسان. صوت إنسان يصرخ آمراً

شيبا! انتبه أيها المغفل!

ارتكزت كفاها [illegible] ونظرت بطرف خلفها. توقفت النمرة على بعد بضعة أقدام منها وكانت تنظر إليها بتركيز كثيف. وكان هناك رجل طويل نحيل يشق طريقه عبر الحاجز وهو متشح تماماً بالسواد. معطف وسروال أسود وحذاء طويل أسود. وكان رأسه عارياً وربما كانت عينا [illegible] تخدعانها ولكنها لاحظت أن شعره كان فاتحاً لدرجة أنه يبدو فضي اللون. لكن بعد كان ناعماً بما لا يتناسب مع لون شعره. وكان هناك شيء مألوف في ملامحه الخشنة وعينيه الخضراوين تحت أجفان ثقيلة وأنفه منحوت بقوة وفم واسع ذي شفتين رقيقتين وقد بدا عليها في هذه اللحظة تعبير بالازدراء وهو يقترب منها. كما لاحظت أنه يسير بعرج واضح

أدارت النمرة رأسها عند اقترابه فوضع يده على رأسها الصغير بحنان ثم قال لها بصوته العميق الغليظ:

معذرة يا شيبا.

ثم استدار نحو [illegible] معتذراً بدون أن يبدو عليه أي أسف حقيقي:

معذرة! ولكن ما كان يجب عليك أن تركضي الآن. شيبا لم تكن ستمسك بسوء.

تضايقت [illegible] بشدة من تعبير الازدراء الذي أبداه لأنها لم تكن معتادة على الركض حرفياً على حياتها كما أنها لم تكن معتادة الوقوف بهذه الصورة المضحكة أمام أي رجل. بل بالعكس فإن جمالها وشعرها الأسود الناعم وجسمها الرشيق، كل ذلك يجعل علاقتها بالرجال سلسة. ورغم أنها لم تكن مغرورة لكنها كانت واثقة من جمالها ومن انجذاب الجنس الآخر إليها لكن الطريقة التي كان ينظر بها هذا الرجل جعلتها تشعر كطفل مشاكس أفلت منه صوته ووجد نفسه في موقف لا يحسد عليه.

liilas.com

قالت وقد ضايقها أن صوتها يرتجف:

«كيف أقول شكراً لو لم توقفها لاتدرستني»

هز رأسه بلطف قائلاً:

«إن شيتا مدربة على أن تنتظر فريستها لا أن تفترسها»

أجابت هيلين وهي تزيح الثلج عن أكمامها:

«لم أكن أعلم أني فريسة»

«لقد ركضت»

حاولت هيلين أن تبدو ساخرة:

«ماذا... لقد فهمت، وسأحاول أن أتذكر في المستقبل ألا أفعل ذلك»

خفت حدة ملامح الرجل قليلاً وهو يقول بسخرية:

«لم تكن تتوقع أن تجد أي شيء يستحق الصيد اليوم»

تنفست هيلين بصعوبة:

«بأي حال»

«والآن تتكلمين من شأن المشكلة»

ونظر حوله ثم استطرد:

«هل تنوين رحلة سيراً على الأقدام حول الجبل؟»

وسمعت الصدى الذي رددته هيلين وقالت:

«لقد تعطلت سيارتي هناك»

وأشارت بغموض إلى الطريق:

«تركتها أحاول البحث عن عون عندما ظهرت فريستك

شيتا»

نظر الرجل إلى أسفل إلى القطة الكبيرة التي وقفت بجانبه وقال:

«شيتا ليست قطة. إنها فهد وهي من الفصيلة نفسها ويطلق عليها أحياناً اسم الفهد الصياد»

وردت هيلين بصوت مرتجف:

«لا يهمني ما هي. هل يمكنك، هل يمكنك أن تدلني إلى أقرب هاتف كي أتصل

أحد ورشاحنتي»

ربت الرجل على رأس الفهد وقال:

«للأسف لا يوجد أي هاتف على مقربة من هنا»

«أليس هناك أي منزل فيه هاتف أستطيع استعماله؟»

«هناك مساكن قليلة في هذه المنطقة»

«هل تحاول إخافتي عن عمد... أم أن هذه هي طريقتك في معاملة الغرباء؟»

قابل الرجل غضبها غير المهذب ببرود كاحساسها

«لنكن أوضح. إنك في منطقة منعزلة بشكل كبير وفي كل حال أرحب بك في منزلي إذا كنت لا تعتبرين ذلك أمراً كريهاً»

وترددت هيلين:

«لكن.. أنا لا أعرف من أنت»

«ولا أنا أعرفك»

«لا... ولكن...»

«هل أنت متزوجة؟ هل تعيشين بمفردك؟ لنا هنا هنا... هذا الكثير؟»

«لا»

فكرت في وقتها كأنما الوقوف طويلاً في وضع واحد وهو سأله:

«ماذا تعلم... ولا يوجد سواك»

فكرت هيلين في ذلك يا إلهي... أي موقف هذا أمامها إما أن تستمر في المشي في هذه الظروف الجوية الرديئة على أمل أن تجد إن عاجلاً أو آجلاً مرفئ أو مزرعة جبلية وهي مجازفة غير مأمونة أو أن تصحب هذا الرجل... هذا الغريب... إلى منزله وتقضي الليل مع اثنين من الغرباء. أية مشكلة!

قال الرجل وقد بدا عليه التعب:

«أرجو أن تقرري أمرك بسرعة»

«سأقبل ضيافتك إذا كان ذلك ممكناً. هل أنت متأكد من أنه لا مانع من حضوري؟»

«سيحضرها بوليت... هيا تعالي لأن الظلام سيحل قريباً»

liilas.com

وبدأ في السير منحدراً نحو الطريق الصخري وقالت هيلين:

ـ جانبس... ألا يجب أن نتعارف؟

نظر إليها الرجل بسخرية وأجاب:

ـ أظن أن هذا يمكن تأجيله. هل تريدين أن تلحقي قطتك؟

تنهدت هيلين، هذا ليس جواباً على سؤالها، ولكنها تعبة على التفكير الآن وهي حريصة أن تكون على بعد من الفهدة. وعندما وصلا الى الطريق الضيق الذي زاد ضيقه بالثلوج المتراكمة على جانبيه، سارت الفهدة باعتزاز في المقدمة واضطرت هي أن تسير إلى جانب الرجل، ورغم غربته كان يتحرك بنوع من الرشاقة والمرونة ما جعلها تظن من الجائز أنه كان رياضياً في يوم من الأيام، على كل هذا هو السبب في أن وجهه كان مألوفاً لديها لأول وهلة؛ أم أنه كان يذكرها بشخص تعرفه؟ وحول المنعطف دخلا في طريق أضيق يتفرع من الأول. كانت عليه لافتة معلقة بالشرع تبين أن هذا طريق خاص. شعرت هيلين بشيء من القلق، إنها لا تعرف هذا الشخص وقد يأخذها إلى أي مكان. ومن الجائز أنه كذب عليها عندما أخبرها بعدم وجود هاتف عمومي في المنطقة.

وكأنه قرأ أفكارها قال:

ـ إذا كنت تفضلين العودة يمكنك أن تفعلي ذلك فأنت حرة ولن أرسل شيبا ورائك إذا كان هذا ما يخيفك.

ـ لا... ثقة أمرك.

ـ حسناً.

نظر إليها الرجل نظرة جانبية فلاحظت بالصدفة أن رموشه كثيفة بشكل غير عادي وأنها قاتمة وتغطي عينيه بلونهما الأصفر الغريب كالوحش تماماً، شيبا وكعيني شيبا أيضاً كان لا يمكن التنبؤ بأفكاره.

كان الطريق يصعد منعطفاً بشكل غير منتظم ثم اعترضته بوابة حديدية وسارا عبر بعض الحقول في طريق مغطى حتى منتصفه بالثلوج. ربط الرجل قدميه على الأرض لينفض الثلج عن حذائه، ونصحها أن تفعل مثله وفتح الباب الخشبي للمنزل وأشار إليها بأن تدخل. نظرت هيلين بخوف نحو شيبا فقد

كانت الفهدة تراقبها بنظرة ثابتة لكنها وقفت ساكنة بجانب سيدها. وتقدمت هيلين وسبقتها داخل المبنى إلى البهو، وتبعها نفس الشكل. فأحست فقط في تلك اللحظة كم كانت تعاني من البرد. اصطكت ثيابها الشعرية المبتلة وأصابت أسنانها اصطكاك. وبعد دقيقة ظهر رجل من الباب الخلفي للصالة ورغم حالة الارتجاف والقشعريرة التي انتابت هيلين لم تستطع إلا أن تحدق في هذا القادم. كان في مثل طول الرجل الذي اصطحبها لكنه كان ضخماً في العرض وله جسم مصارع ذي كتفين عريضتين ورأس أصلع تماماً. وألقى القادم نظرة سريعة على هيلين ثم التفت بنظره إلى الرجل الذي اصطحبها:

ـ تأخرت يا سيدي بدأت أقلق عليك.

قال ذلك وهو يشد أكمام قميصه التي كانت مطوية فوق مرفقيه.

أخذ الرجل الذي اصطحب هيلين يفك أزرار معطفه وعيناه تنظران بتأمل إلى الفتاة المرتجفة ثم علق بصوته المنخفض الجذاب:

ـ كما ترى يا بوك، لدينا زائرة. تعطلت سيارة الآنسة في الطريق بالقرب منا. بعد أن تعد لنا الشاي هل يمكنك الذهاب لإحضار حاجياتها؟

فكرت هيلين أن التعبير على وجه بوك وهو يستمع إلى كلام سيده مثل تعبير شيبا فإن كليهما يتصرفان كأنها زائرة وأمام الرجل الذي اعتبره أهم شيء في العالم.

أجاب بوك في شبه ابتسامة:

ـ بالطبع يا سيدي لا بد أن الآنسة ستقضي ليلتها هنا. سأجهز لها غرفة أليس كذلك؟

ـ أشكرك يا بوك.

وخلع الرجل معطفه الجلدي فظهر قميصه الأسود الحريري وصدر منه من الجنه وتناول الخادم المعطف. واستدار الرجل إلى هيلين قائلاً:

ـ يمكنك إعطاء معطفك أيضاً لبوك. وتأكدي أنه لن يستطيع أن يخطفه بدون أن يصيبه أي تلف.

كانت هيلين ترتجف بشدة حتى أنها لم تستطع أن تفك أزرار معطفها.

وتفحصها الرجل الأعرج نحوها ووضع يديها المتجمدتين جانباً وأخذ يلف لها المعطف ثم رفع يديه وسحبه عن كتفيها وتلقاه «بول» قبل أن يسقط على الأرض. لم تكن تعرف هذا الرجل ذا الملامح الخشنة واللسان السليط ولم تكن تريد أن تعرفه... كان فيه شيء يقلقها ويخيفها ومع ذلك فإن لمسة يده السريعة عندما دفع يديها بعيداً جعلت النار تسري في ذراعيها كأنما أحرقتها وشعرت بالنشوة والنفور في الوقت نفسه.

وقاد «بول» وفتح باباً إلى اليمين. لم تلبث أن الرجلين ينتظران أن تتبعهما فسارت بطريقة مضطربة ودخلت الغرفة وهي تقسم لنفسها بأنها في العادة توقف تلك الرعشة السخيفة.

ووجدت نفسها في غرفة جلوس فسيحة مضاءة بمصباحين عاديين والنار مشتعلة في المدفأة الضخمة، وكانت قطع الخشب مكومة في النار والغرفة تفوح رائحة خشب الصنوبر والأرض مغطاة ببعض الأبسطة وفي هذا بعض كراسي القش ومكتب وطقم من ثلاث قطع مغطاة بقماش داكن وأطلقت عندما مرت الهواء بجانبها وتقدمت لتجلس أمام المدفأة ونظرت حولها بخوف لترى إذا كانت بقربها مع هذا الحيوان فإذا الرجل يأتي نحوها وهو يعرج. وقد ذهب «بول» إلى عمله.

—هلا جلست؟

أشار إلى الأريكة أمام المدفأة وبعد لحظة تعثرت «ميلي» لتجلس على طرف الكرسي بجانب المدفأة ونظر إليها بسخرية ثم جلس على الكرسي المقابل ومد ساقيه أمامه براحة ظاهرة. وبعد لحظة استدار ونزع غطاء القارورة وقال وهو يلقي عليها نظرة شاملة:

—قليل من الشراب على ما أظن! يبدو عليك الحاجة إلى كأس ينعشك.

لم يقم ليقدم الشراب إليها ولكنه مد يده عبر المدفأة وكان على «ميلي» أن تأخذه. لم يكن ذلك مشروبها المفضل لكنها كانت سعيدة لأنه سيدفئها ويزيل عنها البرد. أخذت تشربه ببطء والمشروب يشعل فيها الرعشة ولم يشرب رفيقها شيئاً بل استرخى في كرسيه وعيناه نصف مغلقتين أخذ يتفحصها بتركيز شديد.

وقبل أن تفرغ من الشراب عاد «بول» ومعه صينية الشاي وقال:

—سأذهب الآن لإحضار الحقائب إذا أعطتني السيدة الشابة مفاتيحها.

—نعم... نعم... بالطبع.

أخرجت حلقة من الجلد فيها كل مفاتيحها وناولتها «لبول».

—إنا شاكرة جداً يا «بول». إنها على بعد ميل تقريباً... أوصد السيارة.

هز «بول» رأسه.

—سأجدها يا آنسة.

—أشكرك.

واسترخت قليلاً في جلستها... لقد بدأ الشراب يأتي بمفعوله. وبدأت تعود إلى حالتها الطبيعية. ففي مثل هذا الوقت غداً قد تكون وصلت إلى «باريس» وتنسى هذه الواقعة التي حدثت لها بمجرد ذكرى أو شيء مسلٍ تحكيه لأصدقائها عندما تعود إلى «لندن».

وبعد أن انصرف «بول» اعتدل الرجل في جلسته ونظر إلى الصينية قرب إبريق الشاي ومحتوياته. كان هناك طبق به بعض الفطائر وقطعة الفاكهة تبدو لذيذة الطعم... سألها وهو ينظر إليها بعينيه الصفراوين:

—هل تريدين سكراً وحليباً أم ليموناً؟

—أريد حليباً وبدون سكر مع الشكر.

أجابت وهي ترفض أن تستسلم للخوف بعدما استعادت ثقتها بنفسها. وبينما كان يسكب الشاي استمرت قائلة:

—ألا تظن أننا يجب أن نتعارف؟

انتهى الرجل من سكب الشاي وأضاف الحليب ثم ناولها قدح الشاي وهو يقول:

—إذا كان هذا هاماً بالنسبة إليك.

انتبهت «ميلي».

—هل تقصد أنك يمكن أن تدعو شخصاً غريباً تماماً ليشاركك في منزلك بدون أن تهتم بمعرفة اسم هذا الشخص؟

«من الجائز أني أعتبر نوع الشخص أهم من اسمه»

وقال وهو ينظر إليها بعينين ثابتتين:

«على سبيل المثال أنا غير محتاج لمعرفة اسمك لأعرف أنك فتاة عنيدة نوعاً ما ولا تسمع النصيحة التي تقدم إليها»

احمر وجهها وردت باحتقار:

«وكيف يمكنك أن تعرف ذلك؟»

هز كتفيه واستطرد:

«ليس من المعتاد أن تقوم آنسة مثلك بقيادة سيارتها وحدها في مثل هذه الظروف. ومن الواضح كما ذكرت أن معك حقائب مما يدل على أنك كنت تنوين البقاء في فندق أو ما شابهه»

ثم قطب جبينه وقال:

«من الجائز أنك رتبت لمقابلة شخص ما - بالطبع. ولكن لا يسمح عليك الاهتمام لمقابلته هذه الليلة»

رفعت هيلين أنفها وردت:

«السيدات يقمن أحياناً برحلات وحدهن - ألا تعلم ذلك؟»

«في مثل هذه الظروف ليس هذا شيئاً معتاداً»

«قد أكون إحدى الفتيات العاملات أو كنت في رحلة ما وضللت طريقي»

«نعم هذا ممكن ولكن ليس محتملاً»

«ولماذا؟»

«لأني لا أظن أنك فتاة عاملة»

صاحت هيلين بغضب:

«ولماذا؟»

«من الطريقة التي قابلتني بها يا بيرت. وكأنك معتادة على وجود خدم حولك»

تنهدت هيلين وشعرت أنها في أية مناقشة معه ستكون الخاسرة. إلى جانب أنه يقدم لها ضيافته. قد يكون من الأفضل أن تكون ألطف قليلاً في البداية ثم يكون من طبيعتها أن تتصرف بهذه الطريقة الغالبة ولكن شيئاً ما فيه جعل أمراً

«ما أنها يظهر»

«حسناً»

وافقت أخيراً:

«أنا لست فتاة عاملة. هذا صحيح. واسمي هيلين جيمس ابنة فيليب جيمس»

قال بسخرية وقد أخذ تطوعها بعد أن رفضت هي:

«هل من المفروض أن أعرف هذا الاسم؟ للأسف أنا لست على صلة بالناس الآن»

وابتسم لما جعله يبدو أصغر سناً بكثير. وأدركت فجأة أن وجهه مألوف.

«رأته من قبل... إنها متأكدة ولكن أين ومتى؟»

أجبرت نفسها أن ترد على سؤاله بينما هي تفكر في هذا اللغز:

«والدي هو سير فيليب جيمس - وقد فازت شركته بجائزة صناعية في العام الماضي. إنها شركة جيمس للهندسة»

وهز الرجل رأسه:

«بالتأكيد»

قالت بصبر نافد:

«وأنت لم تخبرني باسمك»

«أخبريني أولاً ماذا تفعلين هنا بعيداً عن المجتمع الذي تعتادينه»

رفعت هيلين كتفيها وقالت:

«في الحقيقة أنا... محتاجة للذهاب بعيداً بعض الوقت. أحتاج لبعض الوقت لأفكر وأنا واثقة أن أبي لن يبحث عني»

وهنا قطب الرجل وقال:

«هل تعنين أنك هربت؟»

«ليس كذلك. تركت لوالدي كلمة فلا حاجة به للانشغال علي»

«ولكنه سينشغل»

«ممكن»

تحركت «هيلين» بقلق وقالت:

«في أية حال هذا لا يعنيك. وأنا فقط ممتنة لأنك جئت في الوقت المناسب وإلا لم

لكنت في متاعب حقيقية».

«حقاً كان يمكن أن تبقي هناك في الثلج، وكان من الغباء ألا تخبري أحداً إلى أين أنت ذاهبة. ألا تعرفين أنه كان من الممكن أن تعلق السيارة لأيام قبل أن يجدها أي إنسان. أخبريني ماذا كان من المهم أن تجري؟»

شعرت «هيلين» بالسخط.

«لا أظن أن هذا يخصك في شيء»

«ومع ذلك أنا محب للاستطلاع أرغب لمعرفة لشخص لم يعد من سكان ذلك العالم الذي تأتين منه».

ونظرت إليه «هيلين» بدهشة ـ ما هذا الكلام الغريب الذي يردده؟ بالتأكيد إن بعد هذه المنطقة في الشتاء لا يعني أنها منقطعة تماماً عن العالم الخارجي. إلا إذا أراد الشخص ذلك. هزت رأسها ثم قالت بحدة:

«والدي يريد أن يتحكم في حياتي ولكنني أبلغ الثانية والعشرين. ومن الجائز أن شخصيتي مستقلة كما قلت. وقد اختلفنا على مشكلة صغيرة»

«لا أظن أنها صغيرة إلى هذه الدرجة لتدفعك لأكثر من مائتي ميل في شتاء قارس يا آنسة «جيمس». ولكن هذا لا يهم فأنا أحترم رغبتك في الاحتفاظ بأسرارك الشخصية».

عضت شفتيها. كان هذا نازلاً بالكاد. وأعادت قدح الشاي إلى الصينية وهي تقول:

«والآن: ألا تجد المكان موحشاً في هذه المنطقة المعزولة بعيداً عن كل الناس ولا يؤنسك إلا «براندا»»

أطبقت رموشه الثقيلة عينيه.

«أنا لست إنساناً مسلياً يا آنسة «جيمس». هل أستطيع أن أقدم لك مزيداً من الشاي؟»

رفضت وهي تضغط شفتيها بخجل وسألته:

«لماذا تتحاشى الرد على سؤالي؟»

«هل كنت أفضل ذلك؟»

كان صوته هادئاً ولكن عينيه كانتا مترقبتين.

«أنت تعلم أنني كنت أفعل».

تنهدت وقطبت جبينها قائلة:

«أنا أعرف وجهك من مكان ما وأنا شبه متأكدة أنني رأيتك من قبل، إما حقيقة أو في الأحلام».

قال ساخراً:

«إنك تطريني بشدة ـ أليس هذا دور الرجل؟»

تضايقت «هيلين» لأنه جعلها تشعر بالحرج وكان ذلك تجربة جديدة بالنسبة إليها

«إنك تعلم ما أقصد. لقد رأيت وجهك من قبل أليس كذلك؟»

بدا عليه الملل من هذا الاعتراض وفجأة قام من مكانه ووقف يديه تحت كتفه ثم سار بخطواته عبر الغرفة نحو النافذة وسحب الستائر الثقيلة على النوافذ ورأت «هيلين» قبل أن يختفي المنظر الخارجي عن نظرها أن الثلج حول وملأها الثلج المتساقط شعوراً بالعزلة.

واستدار إليها قائلاً:

«يؤلمني أن تتأخري في إحضار حاجياتك ويسرني المكان الذي ستنامين فيه يا آنسة «جيمس». أنا أتناول طعام العشاء الساعة الثامنة تقريباً وآمل أن تصاحبيني»

وقلقت «هيلين» في مقعدها وهي تشعر بالضيق بدلاً من الخوف. واقتنعت أنه مصمم ألا يخبرها عن أسئلتها وبعثت حركتها القاصية التهديد ترفع رأسها والسلام.

أطلقت زفرة وخرجت دمدمة متخلفة من حلق الفهد القوي فجاء الرجل ناحيتها وأخذ بيدها وعيناه على وجه «هيلين» المضطرب. سألها بصوت ناعم كالمخمل لكن برنة خفية كالغضب.

«هل يضايقك ذلك يا آنسة جيمس؟»

هزت «هيلين» رأسها وهي تنظر بيأس حول الغرفة القبيحة. كان عليها أن تعترف أن الغرفة جميلة جداً ولا تثير أي شعور بعدم الراحة، ولكن هنا شيء مزعج على الجدران بعض تذكارات الصيد من سيوف وبنادق عتيقة وعدة قطع من رسومات زخرفية ثمينة. هل هو رسام أم نحات أم فنان من أي نوع؟

وفجأة التفت نظرها صورة في إطار معلقة على الحائط خلف المكتب. لم تستطع أن تميز كل تفاصيلها من بعيد. كانت الجلسة في ضوء ضعيف، بل كانت ترى ما يكفي لتفهم أنها صورة لتلك حادث سيارة لا تتبع الرجال وأجزاء السيارات التي اصطدمت في الطريق وانتشرت القطع المعدنية في الهواء المعلق بالغبار. لم تكن صورة ملونة بل تعطي الإحساس الكامل بشناعة ووحشية الحادث.

انتقلت نظرتها الفزعة إلى الرجل الذي كان يقف الآن جامداً بجانب الأريكة. كانت عيناه الصفراوان جامدتين ومتيقظتين فتبينت أنه لاحظ نظراتها المركزة على الصورة وتبينت أيضاً أن ذلك الشيء كان مقصوداً تماماً. لم تحركها الصورة المخيفة في البداية... وكانت. كان واضحاً من الملامح التي حملتها شعرت بالخوف والرعب. لكنه لم يكن خجلاً منها.

وكانت ترتجف وتتعجب وهي تقف على قدميها:

«أنا أعلم من أنت... إنك... دومينيك لابرول... بطل السباق».

ثم تحرك من جسده النحيل واستند بيديه على ظهر الأريكة ثم قال بسخرية:

«نعم... أنا دومينيك لابرول... ولكني لست الآن بطل سباق».

وصمتت قليلاً «هيلين»

«ولكنك كنت كذلك... أنا أتذكر والدي وهو يتكلم عنك... كان معجباً بك أشد الإعجاب قبل... قبل...»

«قبل الحادث. أعلم ذلك»

قالها ببرود.

«ولكني أعتقد... أعتقد

ثم توقفت وقد انعقد حاجباها في استغراب:

«كان الجميع يفترض أنك انتهيت... والدي قال... وكل الناس قالوا...»

وتركت جملتها ولم تكمل جملتها.

«قالوا بأنني انتهيت أليس كذلك؟»

كانت لهجته ساخرة واستطرد:

«نعم أعلم تلك الإشاعة. كانت إصابتي خطيرة. وكان يلائمني أن أخلي هذا الاعتقاد فليس هناك شيء أكثر إلحاحاً من بطل يسقط وبعد ذلك يحاول أن يحتفظ بالأضواء».

«ولكن الأمر لم يكن كذلك...»

واعترضت «هيلين» قائلة:

«كان الصدام حادثاً مروعاً... ولكن لا يمكن لوم أحد إن الدعاية...»

قاطعها بصوته الهادئ الساخر:

«وهل قلت إني ألوم أحداً؟»

«لا ولكن... والدي كان من أشد المعجبين بك وكان مثل الآلاف الآخرين يظن أنه من الأفضل أن نتركهم يفترضون أنك انتهيت».

أكمل «دومينيك لابرول» وأخذ يدلك قطعة بيده السمراء القوية:

«هل تظنين أنه ليس من حقي أن أتمتع بحياتي الخاصة لأني كنت في يوم من الأيام من المشهورين يا آنسة جيمس؟»

لم تعرف «هيلين» كيف ترد على كلامه.

«أنا لا أصدر أحكاماً يا سيد لابرول. ولكني كل ما هنالك أن موهبة كموهبتك من المؤسف أن تضيع ولا يتعلم منها المتسابقون الجدد».

فلوى شفتيه ومرر أصابعه في شعره الفاتح قائلاً:

«هذا يكفي... لا أظنك ستفهمين يا آنسة جيمس».

رفعت «هيلين» رأسها وردت:

«إنك تقلل من شأني يا سيد لابرول».

فابتسم ساخراً

www.liilas.com

«لكن... ولكن لسوء حظك أن ذاكرتك قوية. كنت أظن أن فتاة في السادسة عشر تهتم أكثر بالموسيقى الشعبية وأبطالها»

«لسوء حظك أن والدي كان يذهب إلى سباق السيارات وكنت أذهب أحياناً معه»

فسألت عيناء وهي تفكر:

«إنه أمر شائق»

وأضافت كأنها:

«ماذا تعني؟»

هز «دومينيك لايول» كتفيه باستنكار:

«واضح ما أقول»

«ما هو الواضح؟»

نظر إليها بعينين ثابتتين مرتابتين:

«عرفتك على يا آنسة جيمس. لسوء حظك أظن أن هذا يعني أنك لن تستطيعي ترك هذا المكان في الصباح»

٢ ـ العشاء المردود

لفترة طويلة كان هناك سكون تام في الغرفة. لم تستطع عيناء أن تصدق أنها سمعت جيداً ما قاله. ولكن شيئاً ما في وجهه النحيف القاسي أكد لها أنها سمعته جيداً.

قالت أخيراً:

«لا يمكن أن تكون جاداً فيما تقوله»

«للأسف إني جاد يا آنسة جيمس»

«ولكن لماذا... لماذا؟»

«بالتأكيد هذا واضح أيضاً. فأنا لست مستعداً لذلك النوع من الدعاية التي ستؤدي إلى التشكيك في هذا المكان»

ورفضت عيناء أن تقبل شعور الخوف الذي بدأ يضطرب بداخلها:

«ولكن... ولكني لن أخبر أحداً»

قالت محتجة وهي تكرر الكلمات نفسها التي سمعتها كثيراً في الأفلام وفي التلفزيون، عندما كان البطل يواجه بعض الهاربين من القانون. إلا أن «دومينيك لايول» لم يكن هارباً من القانون. كان هارباً فقط من المجتمع.

«للأسف لا أستطيع أن أجازف. أخشى ألا يمكنك مقاومة الإغراء بأن تقولي لوالدك إن الرجل الذي كان يظن أنه مات مازال حياً وبصحة جيدة ويعيش في منطقة البحيرات»

«لن... لن أفعله»

وضغطت عيناء على يديها.

«على أي حال لا يمكن أن تمشي هنا. هذا غير قانوني»

فابتسم ابتسامة كريهة.

«حقاً؟»

«ولكن يجون أقصد أن والدي سيبحث عني»

«قلت لي بنفسك إنه لن يفكر بأن يبدأ البحث عنك هنا»

«ليس في البداية. ولكن عندما لا يجدني في أي مكان آخر»

«حينئذ ستكونين حرة في العودة إليه»

وارتعشت.

«ماذا تعني؟»

«مسألة أمري ترك هذا البلد.. وحتى أفعل ستبقين هنا»

وشهقت «ميلين».

«ولكن هذا قد يستغرق شهوراً»

وبدا موافقاً بمرح.

«على الأقل أسابيع»

وانفتح الباب فجأة خلفها فتحركت بعصبية. كان «بيرت» وهو يقف على العتبة وكتفاه العريضتان يكسوهما الثلج.

«آه «بيرت» لقد عدت»

وتبعه «دومينيك لابول» بحذر لم يلحظ «ميلين».

«هل وجدت السيارة؟»

فابتسم «بيرت» وقال:

«نعم يا سيدي. الحقائب في الردهة. سأخلع معطفي في لحظة وآخذ الآنسة إلى غرفتها»

وهز «دومينيك لابول» رأسه موافقاً.

«نعم افعل ذلك يا «بيرت». وبالمناسبة إن اسم ضيفتنا هو الآنسة «جيمس». «ميلين جيمس». وستبقى معنا لفترة أطول مما توقعنا»

لا تعرف «ميلين» ما تناقله الرجلان لكن كل ما أبداه «بيرت» من انفعال

هو تقطيبة خفيفة من حاجبيه ثم ألقى بمفاتيحها إلى سيده وهو يقول:

«نعم يا سيدي»

«سآخذ هذه المفاتيح»

قال الأخير هذا وهو يلتقطها عندما ألقاها له «بيرت».

«سأشرح لك الموقف فيما بعد.. هل هذا حسن؟»

«نعم يا سيدي»

كان «بيرت» مستمعاً لأوامره بطريقة عادية.. وشعرت «ميلين» وهي تراقب الرجلين أنها ستنفجر بالبكاء. لا يمكن أن يحدث هذا لها. لا يمكن أن يكون «دومينيك لابول» جاداً فيما يريده من إبقائها هنا حتى يرتب أمر رحيله من البلد. إن هذا غير ممكن.

وانفجرت قائلة وهي ترتعش:

«لا أريد أن أرى غرفتي. لا تستطيعان إبقائي سجينة هنا. هذا مستحيل»

أرى «دومينيك لابول» التفته بشيء من القسوة وسأل بلهجة تهديد هادئة:

«وكيف تنوين أن تغادري؟»

«بالـ.. سأهرب»

«مرة أخرى؟»

«سأذهب إلى أقرب مزرعة أو قرية. سأتصل تليفونياً وأطلب النجدة»

«لا توجد تليفونات هنا يا آنسة «جيمس»»

«أقصد في القرية»

سألها «دومينيك لابول» بحدة:

«وهل تعرفين الطريق إلى القرية؟»

«لا أظن أنه يصعب العثور عليه»

«في هذه الظروف؟»

وأشار خلفها بالشباك.

«بالله عليك.. أرجوك لا أريد أن أبقى هنا. أريد فقط أن أذهب إلى باريس وأعدك أني لن أخبر أحداً عنك. فقط دعني أذهب»

«أخشى أن يكون ذلك مستحيلاً يا آنسة جيمس».

التفت معتذراً إلى بول قائلاً:

«يجب أن تنقل السيارة غداً قبل أن يذوب الثلج».

«سأتولى ذلك في الصباح».

شعرت هيلين بحالة من اليأس القاطع. وبما أنه لا حل لهذا الموقف الغريب، لقد وضعت نفسها في هذا المأزق يا الله. لو لم تغير من عزمها من والدها ولو لم تتعرف عليه ولو... ولو...

«لا تستطيع أن تنجي من غلاظة الغريب».

رد دومينيك لابول وهو يحرك عضلات فمه:

«لا أتمسك بذلك».

كان يبدو مرتاحاً بشكل واضح وبدت هيلين وكأنها تأبى أن الوقوف لمدة طويلة بسبب ارتباكه. كان من المفروض أن تشعر بالسرور لأنه ليس قوياً إلى الحد الذي يرغمها أن تتخطاه. ولكن هذا لم يكن شعورها. كان يتحرك في داخلها شعور خاص بالعطف. وتساءلت عن السبب الذي جعله يترك العالم الذي كان يعيش فيه لهذه العزلة الرائعة.

وشعر بول أيضاً بغضب سيده وبعدم الكلفة التي رأتها سنوات خدمته معه. قال له بلوم ورفق:

«إنه موعد علاجك يا سيدي. إذا نزلت إلى الدور الأرضي سأتكفل بك على الفور بعد أن أصطحب الآنسة جيمس إلى غرفتها».

كان تعبير دومينيك لابول وهو ينظر إلى هيلين ينم عن السخرية من نفسه. وسألها بمرارة:

«هل ترين كيف الحال معي؟ إني مثل أداة غريبة تحتاج للتدريب دائماً - أليس كذلك يا بول؟»

احمرت شفتا هيلين ولم تستطع أن تمنع نفسها من أن تقول:

«إنك لست مسناً».

«على الأقل بضعة سنوات أكبر مما كنت عندما سمعت اسمي لأول مرة».

قال ذلك بصوت بينما تقلص وجهه من الألم.

«أرجو أن تعذريني...»

وخرج وهو يخرج بثقل وقد انثنى فخذه في الشيء بشع. رأت في بول وعلى وجهه تعبير الإخلاص والحب الكبير كما يجعل هيلين تشعر بأنها دخيلة. وقامت أيضاً الفتاة وسارت خلف سيدها.

ثم استدار بول نحوها وقال وهو يلف أزرار معطفه وقبعته:

«لحظة واحدة يا آنستي... هلا أتيت معي؟»

كانت هيلين تريد أن تحتج - المفروض أن تحتج. يجب أن تذكر أن هذا جنون وأنه ليس من حقهم أن يحجزوها رغم إرادتها وأنها ستجد طريقة للهروب. ولكنها بدلاً من ذلك راقبت بول وهو يحمل حقائبها ثم تبعته صاعدة السلم الخشبي الواسع وقدماها تغوصان في السجادة ذات اللون البني والتي تغطيه.

كان مطلع السلم كالصالة له نوافذ زجاجية. وفي منتصف الطريق إلى أعلى نافذة مستديرة تطل على خلفية المنزل. وكان من غير الممكن رؤية أي شيء من خلال الجليد المتساقط لكن لمعان الثلوج أعطى المكان إحساساً خاصاً.

وفي أعلى السلم دهليز يؤدي إلى الجانبين وسياج السلم يطل على غرفة الجلوس الواسعة.

وأخذت هيلين تتأمل الغرفة الآن بشكلها الرائع.

وسار بول في الممر إلى يمين السلم ماراً بعدة أبواب قبل أن يقف أمام باب الغرفة التي ستكون غرفتها. فتح الباب وأضاء الأنوار. ثم تبعته هيلين داخل الغرفة.

وكانت الأرض مغطاة بسجادة ناعمة بلون الزيتون تتناسب مع لون غطاء السرير الزيتوني والسكري، وكذلك لون الستائر المطرزة الحريرية التي تغطي النوافذ. وكان الأثاث المكون من سرير وثلاث مرايا وخزائن كبيرة من خشب الماهوجني الثقيل أضخم قليلاً مما يجب لكنه مقبول في هذه الغرفة ذات السقف العالي. وهناك مدفأة تحت النافذة والغرفة دافئة بشكل مريح.

ووضع "بوب" حقائبها على الأرض وأشار إلى باب قرب الخزانة في الطرف الثاني للغرفة قائلاً:

- هنا الحمام.

ثم نظر حوله ليتأكد أن كل شيء على ما يرام.

- ووضعت زجاجات ماء ساخن في السرير ويمكن إضافة مثلها مرة أخرى إذا احتجت لذلك.

قالت "هيلين" وهي تعض شفتيها متعجبة كيف انقلبت المواقف بينهم:

- أشكرك يا "بوب".

ثم أضافت وهي تتجه إلى الباب:

- هل فكرت...

نظر إليها بأدب برغم استعجاله الذهاب لسيده:

- نعم يا آنسة؟

- هل تدري... أن تغلق الباب خلفك.

ابتسم وخرج وأغلق الباب وسمعت فقط رنات المفاتيح من الداخل. بعد خروج الخادم ذهبت "هيلين" نحو النوافذ وجذبت الستائر جانباً لكنها لم تستطع أن ترى إلا بضع أشجار مغطاة بالثلوج. تركت الستائر تعود إلى مكانها واستمرت لتتفقد غرفتها.

وفكرت بشيء من عدم الاكتراث: إن أية غرفة في فندق لا يمكن أن تكون أكثر راحة، وأي صاحب فندق لا يمكن أن يكون أكثر اهتماماً وراحة ضيفه من "بوب" بالغرفة! كما فكرت في الأمر كلما بدا خيالياً. فكم من المتوقع أن تبقى هنا؟ وكم من الوقت سيستغرق "مونتيناك لايول" ليسوي أموره كما يريد ويتركها تغادر؟

أخذت تذرع الغرفة بقلق محاولة تهدئة مخاوفها التي عاودتها عندما وجدت نفسها وحيدة. هل يعني حقاً ما قاله؟ أم أنها خدعة متعمدة ليخيفها ويتسلى بها؟ ورجعت الأحوال الأخيرة ومع ذلك فهو شخص مثقف ومهذب! كيف يمكن أن يقرر بشكل عفوي أن يحتجزها على غير إرادتها ولا يتركها إلا في الوقت الذي يناسبه هو؟ ما هي طريقة الحياة التي كان يعيشها هذه السنوات الأخيرة والتي

جعلت منه هكذا!

نظرت إلى ساعتها التي تجاوزت السادسة. لقد قال "مونتيناك لايول" إنه يتناول عشاءه في الثامنة ولكنها الآن تشك في قابليتها على الطعام وأين هو وما هو نوع العلاج الذي يعطيه له "بوب"!

نظرت إلى نفسها في المرآة فلم يعجبها منظرها المشوش. كانت سمراء مرهقة منهكة بسبب ظنها وشعرها غير منسق بفعل الهواء وفي خديها خدوش أحدثتها احتكاكها بالشجر النابت على جانب الطريق.

ورفعت يدها المرتعشة ولمست خصلة من شعرها الأسود الناعم. ماذا ستفعل الآن؟

تفحصت الحمام فتأكدت من عدم وجود أي مخرج سوى باب غرفة النوم. أغلقت باب الغرفة بالمفتاح ودخلت لتستحم. كان الحمام فسيحاً والمياه الساخنة وفيرة وشعرت بالراحة والانتعاش وخرجت من الحمام وقد لفت جسمها بمنشفة بيضاء كبيرة وبدأت تستحضر بعض الملابس النظيفة. لكن لسوء حظها كانت حقيبتها مغلقة ومفاتيحها في الحقيبة التي أخذها "مونتيناك لايول".

وقفت مترددة وسط الغرفة لا تدري ماذا تفعل. كانت تريد أن تخرج إلى الممر وتنادي "بوب" ليحضر المفاتيح ولكن حرج موقفها جعلها تعيد النظر في هذه الفكرة. وبقليل ارتدت ملابسها التي خلعتها للتوّ وأكملت بتصفيف شعرها وبمكياج خفيف. لحسن الحظ أن أدوات المكياج كانت في حقيبة يدها التي لم تمس مرتبة. كما أن ملابسها لا بأس بها وفي أي حال فهي تشك إن كان "مونتيناك لايول" سيلاحظ أي شيء. وصممت أن تحصل على مفاتيحها قبل النوم فهي لا تريد أن تنام بدون قميص نومها.

شعرت بشيء من القلق لهذه الفكرة. ولكن ليس هناك خوف من أن يضايقها أحد خلال الليل. بابها يغلق بإحكام، وهو متين بدرجة يمنع أي متطفل عليه. كما أن "بوب" لا يبدو من ذلك النوع الذي يفرض نفسه على أحد. و"مونتيناك لايول"... إنها لا تريد أن تفكر في "مونتيناك لايول". ولكن من المستحيل ألا تفكر فيه. لا تريد أن تتذكر الإهانة التي ألحقها عندما لمسها من قبل أو السحر

التحديق الذي شعرت به نحوه. القول لنفسها إنه غير وأنها تكرهه وتخافه. ومثل هذا الرجل لا يمكن أن يجذبها غير كسيح. كما أنه لا تشعر له وقد سمح لنفسه أن يفسد خططها لمصلحته الخاصة.

ومع ذلك فهي تذكر كل التفاصيل الخاصة به. شعره الفاتح اللون وعينيه الصفراوين وخطه الناعم، وجسمه القوي النحيل وعضلات فخذه التي كانت تبدو تحت ثياب سرواله الضيق وحذاءه الطويل حتى ركبتيه، والكرب الذي بدا فيه عندما شعر بالألم. أمسكت أنفاسها. ليس من المعقول أن تشعر بالعطف عليه. ولكنها فعلت!

هزت رأسها والتف شعرها الأسود حول وجهها وفتحت الباب وخرجت. وكان المطر سحاً رمادياً. أضاءت نور غرفة النوم وسارت بخطى نحو السلم على رأس السلم.

ونزلت إلى الصالة ونظرت حولها في حيرة. أي باب يؤدي إلى غرفة الجلوس؟ إنها لا تتذكر. اقتربت من أحد الأبواب وفتحته فوجدته يؤدي إلى غرفة ملابس فأغلقته بسرعة واتجهت إلى باب آخر وهي تشعر كأنها تاليس في بلاد العجائب. كانت هذه غرفة طعام صغيرة فيها مائدة مستديرة يغطيها مفرش أبيض. هل هذه هي الغرفة التي ستتناول فيها طعام العشاء؟ وتنهدت ثم استدارت على صوت صوت خلفها. كان أحد الأبواب في الصالة قد فتح وظهر دومينيك لايول من خلاله واتجهت نحوه وراءه.

"هلا انضممت إليّ؟"

وشعرها بضربه الضيق الجذاب الذي بدأت تعود عليه في هذه الفترة القصيرة. هزت كتفيها بعجز وأطاعته. أتبع هذا الطريق لتسبقه إلى غرفة الجلوس ثم أغلق الباب خلفها. كان قد غيّر ملابسه السوداء إلى قميص حريري بشمشي اللون وسروال بيج فاتح ومضرية بلون أغمق قليلاً من السروال. وكان وجهه لا يظهر عليه التعب الذي بدا عليه من قبل. وتذكرت عيلين أن بوليت لابد قد قام بعمله فله جسم مصارع ولكنه يمكن أن يكون خروفاً لطيفاً.

واتجهت ناحية المدفأة وهي تراقب بخوف التهدئة التي تجتاحها. وكانت المدفأة

قد مثلت بالأخشاب في قاعها والقطعة التي تتلألأ عليها النيران من قبل قطعت بنظام جميل.

أشار دومينيك إلى الكرسي الذي جلست عليه من قبل قائلاً:

"تفضلي بالجلوس.. هل أقدم لك مشروباً قبل العشاء؟"

كان يعاملها كأنها ضيفة منتظرة. فشعرت بالاستياء. هل كان يتوقع أن تتصرف على هذا الأساس؟ هل ستتركه يفسد خططه بدون مقاومة؟ كيف يجرؤ أن يتصور أنه ليس لها أي رأي في الموضوع؟ قالت أول كلام خطر لها:

"في الواقع أنا لم أنزل لأتعشى معك. أريد مفاتيحي. مفاتيح سيارتي. ليس من حقك الاحتفاظ بها. لم أستطع حتى تغيير ملابسي بعد القيادة."

ابتسم دومينيك وهو يدفع يده في جيب سرواله ويخرج حلقة مفاتيحها ويحصي المفاتيح باهتمام ثم قال:

"آسف. طبعاً تريدين مفاتيح سيارتك. أرجو أن تسمحي لي..."

حدقت فيه عيلين. يخطف اللحظة ثم بدون أن تفكر في النتائج امتدت أصابعها تخطف المفاتيح من يده. لم تكن تعرف بالضبط ماذا يمكن أن تفعل بها. لم تبحث في أشدها الفكرة الغريبة في الركض إلى سيارتها ومحاولة إدارتها مع عدم إمكانية ذلك. والهروب بها كانت فكرة غير عملية على الإطلاق. ولكن كان يجب عليها أن تفعل شيئاً، أي شيء، لتثبت له أنها ليست عاجزة كما يتصور.

كانت محاولتها فقد أطبقت أصابعه على حلقة المفاتيح وسارت محاولتها لانتزاعها بالفشل. إذا كانت قد تصورت أنه ضعيف أو أن إصابته أدت إلى عجزه عن رد الهجوم فقد أطلقت على الفور من أن افتقادها خاطئ. وعندما هاجمته كانت تتوقع أن يفقد توازنه. لكن هذا لم يحدث وكان جسمه القوي يقاوم بشدة. كما أنها لم تنتبه على الإطلاق للتهديد التي كانت تراقبها بعينين متحفزتين داكنتين والتي امتنعت عن التدخل بأمر من سيدها. وبينما هي مستمرة في محاولة انتزاع مفاتيحها من يده لم تستطع إلا أن تشعر بوجود دومينيك لايول. كانت تشعر بسخونة جسمه وبالعطر الذي يفوح منه. ولكن عندما نظرت إليه ورأت الابتسامة الساخرة القاسية على وجهه انسحبت بعيداً بسرعة خائفة.

«أنت... أنت مريض! إنها مفاتيحي وأنا أريدها»
سألها وقد ارتفع حاجباه:
«ألا تظنين أنك تتصرفين بغباء؟ عرضت أن أعطيك المفاتيح التي تريدينها»
وحركت رأسها يمنة ويسرة بشعور العجز وقالت بصوت مهزوم:
«لماذا تفعل ذلك؟ لماذا لا تتركني أذهب؟»
سألها بسخرية:
«والليلة؟»
«لا شأن... أرجوك»
قال بازدراء:
«لا تستعطفيني.. أنا أحتقر الضعف»
شعرت هيلين كأنه صفعها. ضغطت بيدها على حلقها واستدارت بعيداً عنه وهي تستند على ظهر الأريكة تستعيد رباطة جأشها. وكانت تشعر بعينيها تؤلمانها لشدة رغبتها في البكاء. شعرت بالضياع والوحدة وعدم القدرة على التفكير المتزن وحتى النظرة التحررية التي كانت غالباً توجهها إليها لأنها قرأت وامتدت يدها لم تستطع أن تتركها!
«تعني التحرري هذا»
دفع دومينيك لايول كوباً في يدها
نظرت إلى الكوب بلا تعبير وسألت:
«ما هذا؟»
«انه... سيساعدك على أن تستعيدي تفكيرك السليم»
واجتاحتها الرغبة في إلقاء الكوب بما فيه على الأرض لكنها كانت عطشانة فرفعت الكوب إلى شفتيها المرتعشتين وشربت منه قليلاً ثم شربت الباقي دفعة واحدة. لسعها الشراب في حلقها فسعلت وصعدت الدموع إلى عينيها ولكنها شعرت بالدفء يسري بداخلها.
وجال دومينيك لايول حول الأريكة دون أن ينتظرها جلس في الكرسي قرب النار الخافتة ثم سكب لنفسه كأساً من زجاجة على الصينية بجانب كرسيه.

أخذ سيكاراً رفيعاً من صندوق على رف الكتب بجواره، وأشعله باستمتاع وأشبع من القداحة بواسطة شمعة رفيعة. ووقفت هيلين تراقبه من وراء الأريكة وتتعجب لعدم اتزانه الشديد رغم علمه بلا شك بحالتها.
وبعد أن أشعل سيكاره كما يريد وضعه بين أسنانه وأخرج مفاتيحها من جيبه وفحصها جيداً ثم استخرج اثنين منها وألقى إليها بالباقي. ولم تكن سريعة بما يكفي لالتقاطها فسقطت المفاتيح على الأرض أمامها. انحنت لالتقاطها وهي تشعر بالمهانة ولاحظت أنه أخذ مفاتيح السيارة وظل وهو يمد ساقيه الطويلتين أمامه.
«والآن... أين تبيتين؟»
«لا سأذهب إلى فراشي. وآمل أن تكون في الصباح قد عدت إلى رشدك»
رد بابتسامته الساخرة التي أصبحت تتوقعها وهو يخرج سيكاره من فمه:
«لا تشعري بخيبة الأمل إذا لم أفعل»
«أنت... حقير»
«رأيك فيّ لا أهمية له»
وراقبها وهي تسير نحو الباب ثم قال:
«ألم تنسي أن الحرب تعتمد على بطون قواتها؟ وإذا لم تتناولي عشاءك فستكونين في الصباح جائعة جداً»
وأحست هيلين لأول مرة أنها تحس بالطعام. تستطيع أن تقرر نفسها
«لا أستطيع أن ألمس طعامك»
قالت ونظرتها تزيد من تصميمها
«لو أكلته سأمرض»
وقبل أن تخرج بعد هذه الكلمات انفتح الباب ودخل ... يحمل صينية. لم تستطع أن ترى كل ما عليها.. لكن رائحة صلصة الكاري كانت واضحة ولاحظت إبريقاً من القشدة مع قطع ... على جانب الصينية.
ونظر الخادم إلى هيلين باندهاش ثم قال:
«فكرت في أن أقدم لكما العشاء هنا يا سيدي فالليلة باردة جداً»

قال «دومينيك» وهو يبتسم بسرور أكثر من العادة:

ـ إنها فكرة حسنة. هلا أكلت معي يا «بولت»؟

ورأى «بولت» نظرة على «هيلين» وهي ما زالت تقف بجانب الباب وقد عرفها رائحة الطعام. بدأت الآن فقط تشعر بالجوع الشديد وأسفت لتصرفها التسرع في رفض الطعام. وقال «بولت»:

ـ ولكني ظننت أن الآنسة...

وهز «دومينيك» رأسه قائلاً:

ـ فالآنسة «جيسي» ليست جائعة يا «بولت». قالت إن الطعام سيرهقها.

ونظر إلى وجه «هيلين» الشاحب بعينيه الشاسعتين تحركها كلها.

ـ نعم... هذا صحيح... أنا أهتم باختيار الشخص الذي أتناول الطعام معه.

ثم خرجت وصفقت الباب وراءها.

ووقفت لحظة في البهو متوقعة أن يتبعها أحد على تصرفها لكن كل ما سمعته هو انفجار في الضحك من «دومينيك» لأبوك. واعتقدت من أن «بولت» هو الذي سيستعمل الكوب الآخر على الصينية.

٣ ـ النوبة

كان سرير «هيلين» مريحاً جداً، وذكرها برحلات الليلة السابقة بطفولتها عندما كانت والدتها تضعها في السرير وتحكي لها قصة قبل النوم.

لم تكن تتوقع أن تنام، لكن التعب عمل مفعوله وعندما استيقظت كانت الغرفة مليئة بضوء الشمس وانعكاس الثلج. ولحظات لم تستطع أن تتذكر أين هي ولكن على الفور عادت كل الذكريات تتزاحم عليها ورغم ذلك لم تكن تعرف بالضبط أين هي عدا أنها في منزل في منطقة البحيرات وتذكرت مضيفها وكل أحداث الليلة الماضية الغريبة.

ونظرت الى ساعتها التاسعة والنصف تقريباً. فركت عينيها باستغراب فقد نامت أكثر من اثني عشرة ساعة. وقذفت الأغطية جانباً وقامت من سريرها وسارت نحو النافذة. فالآن وفي ضوء النهار يمكنها أن ترى المكان وقد ترى منازل أخرى.

لكن المنظر أمامها كان مخيباً للآمال. فكل ما استطاعت أن تراه هو حديقة خلفية مغطاة بالثلج وورائها حقول يمتد أيضاً. أما تحت نافذتها مباشرة فكان هناك آثار أقدام شخص يتخطيه ولا شك أنه «بولت». وكانت هناك آثار أقدام تدل على أن شخصاً ما قد خرج. أغلقت الستائر ونظرت الى الغرفة حولها. لم تكن أقل جمالاً في ضوء النهار ورغم أن الملابس الخارجة من حقائبها كانت تبدو غير منظمة. كانت متضايقة في الليلة الفائتة ولم تستطع أن تفعل شيئاً إلا أن تجد قميص نومها وتدخل في الفراش. وأطاعت الرغبة في حقائبها وحملت الحمام لتأخذ دوشاً، ولكنها لم تجد دوشاً في الحمام فاغتسلت وعادت الى الغرفة لترتدي

ملابسها. وبينما كانت تغني سروالاً وقالباً معقّفاً سمعت طرقة خفيفة على الباب. وخفق قلبها بشدة ووقفت ساكنة لحظة تتساءل من الطارق.

ثم سمعت صوت «بيك» الخشن:

«آنسة «جيسي» آنسة «جيسي» هل استيقظت؟»

«نعم.. ماذا تريد؟»

«أحضرت لك إفطاراً يا آنسة. تذكرت أنك قد تكونين جائعة.»

ترددت «جيليان» خطر لها أن تأمره بالذهاب وأن تخبر «بيك» أنها مضربة عن الطعام حتى يتركها تذهب ولكنها تذكرت أن هذه الطريقة لن تجدي مع رجل مثل «دومينيك لابول». إنه يستطيع أن يتركها حتى تسقط من الاعياء قبل أن يفكر في الاهتمام بها وحتى في هذه الحالة فهي تشك أنه سيستسلم لطلباتها.

فصاحت وهي تسحب بسرعة بلوزة أخضر وتدخله في رأسها:

«لحظة واحدة»

وفتحت الباب وهي تخرج شعرها من فتحة البلوزة. كان «بيك» أمام الباب بجسمه الضخم الذي أصبح معروفاً لها وأكمام قميصه مطوية فوق ذراعيه وقد ظهرت عضلاته البارزة من تحتها. لم يكن يشبه مضيفاً مثلاً ومع ذلك فالصينية التي أحضرها ووضعها على الطاولة قرب سريرها كانت منسقة أحسن تنسيق.

وقال بابتسامة ساخرة:

«كورنفليكس وبيض وشرائح الخبز والمربى والقهوة. هل هذا يعجبك؟»

نظرت إلى الصينية ثم إلى «بيك» واحمرت قليلاً ثم قالت بصراحة:

«عظيم.. إنني أموت من الجوع!»

قال «بيك» بلهجة جافة:

«السيد «لابول» كان يظن ذلك»

أطبقت شفتا «جيليان»

«أوه.. هو يظن ذلك؟»

واتجه «بيك» ثم قال:

«الآن هل ستطلبين مني أن آخذ كل شيء ثانية؟»

ترددت «جيليان» ثم قالت بحنق:

«يكفي الجدل..»

«هل ستظنين أنك ستغيظين وجهاً السيد «لابول» لن يهمه إذا جوعت نفسك»

وبرزت كتفيها قائلة:

«أعلم ذلك»

«وإذن لا تكوني عنيدة، تناولي إفطارك وسأحضر لآخذ الصينية فيما بعد»

نظرت «جيليان» إلى الخادم الضخم بشك:

«إلى متى يريد..»

ورفضت أن تنطق اسم السيد «لابول».

«إلى متى ينوي إبقائي هنا؟»

سار «بيك» نحو الباب وقال ناصحاً وهو يخرج:

«تناولي إفطارك يا آنسة.»

بعد أن أغلق الباب نظرت «جيليان» بعجز نحو الرواق. ماذا افترضت أن «بيك» يتعاطف معها؟ كان يجب أن تعرف أنه لا فائدة من كسب الثقة.

وفي أي حال فإن رائحة الطعام في هذه اللحظة كانت أقوى من أن تقاوم. رفعت الأغطية وانشغلت تأكل بنهم. كان إفطارها المعتاد الخبز المحمص والقهوة لكنها اليوم أكلت كل ما أحضره «بيك». وكانت القهوة جيدة فشعرت بالشبع الطيب. بعد أن انتهت من طعامها قامت ومشت مرة أخرى إلى النافذة. ما المفروض أن تفعل الآن؟ قال «بيك»: إنه سيحضر ليأخذ الصينية فهل هذا يعني أنها يجب أن تبقى في غرفتها؟ كان كل كيانها يثور على هذه الفكرة. ورغم كل الغرائب السيئة في وضعها فإن الصباح كان جميلاً، وكانت تتمنى أن تخرج في الهواء الطلق.. تذكرت في الفندق الصغير في «باريس» الذي كانت تنوي الذهاب إليه. كانت تنوي أن تقضي أيامها في التنزه وقيادة السيارة والتمتع بالتحرر فيه الماضي من سيطرة والدها الخانقة. لكنها الآن تعيش في وضع أسوأ وأشد كثيراً مما يمكن أن يتصور والدها

وجعلها تفكيرها في والدها تتساءل إذا كان قد استلم الكلمة التي كتبتها له لقد وضعتها في صندوق البريد في لندن اليوم السابق وهي في طريقها إلى الشمال. لم تكن تريد أي أحد أن يعلم برحلتها لئن وجدتها أما الآن فهي تتمنى لو لم تكن قد أخفت آثارها بكل هذه الدقة.

لن يهتم أحد بالبحث عنها هنا، وحتى لو فكروا فكيف سيجدونها؟ إذا كان دومينيك لاورل قد عاش هنا في مدة السنوات الثلاثة فإن أحداً لن يفكر في تعكير عزلته الآن. وفي الواقع إنها تشك أن أحداً يعلم بوجوده أصلاً.

وقطبت جبينها لكن لابد أن أحداً يعلم بوجوده. لابد أن هناك من يمدهم بالطعام. وماذا عن البريد؟ ارتفعت روحها المعنوية قليلاً. إذا كانوا سيبقونها هنا فلابد أنهم سيحتاجون لمؤن أكثر وسيلاحظ من يقوم بهذه المهمة ذلك.

تنهدت. ولكن بولت يستطيع أن يقول إن لديهم ضيفاً ولن يشك أحد في كلامه. إن فرصتها الوحيدة في هذا الاتجاه تبدو في حضور أحد إلى المنزل، ساعي البريد على سبيل المثال.

وأخذت تفكر في طرق تلفت النظر إليها رافضة أن تفقد الأمل. كانت ذكية بما فيه الكفاية لتعرف أن دومينيك لن يسمح لأحد أن يراها لذلك كان يجب عليها أن تبحث عن المساعدة بطريق آخر. يمكنها مثلاً أن تكتب ورقة وتلقيها من النافذة العليا. لا... ستختفي تحت الثلج أو سيلتقطها الهواء. وقد تكون هذه فكرة جيدة... لكن شعرت باليأس. ملاحظتها في عنوان يمكن أن تكتب؟ إنها لا تعرف أين هي ولا أين يوجد هذا المنزل؛ تفكيرها لا يسفر عن نتيجة. إنها لا تستطيع حتى أن تتذكر اسم القرية التي سألت فيها عن اتجاهها اليوم السابق.

عاودها الأمل مرة أخرى. نعم الناس في تلك القرية، مدير مكتب البريد قد يتذكر سيدة صغيرة غريبة تسأل عن الطريق. بالتأكيد لا يأتي غرباء كثيرون إلى هذه المنطقة في هذا الوقت من السنة. نعم إنها متأكدة أنه لو سئل سيتذكر وسيخبر عن الاتجاه الذي ذهبت فيه.

وتقلصت يداها في جيبها إنها تبحث عن ذرة أمل في موقف يائس. ولكنها لا تفقد أملاً. كل شيء متوقف على بحث والدها عنها وقد يمر أن ينتظر لندن إلى

متى ستتغيب عن المنزل. ولكن إذا بحث عنها واستنفد الأماكن التي قد يتصور أن يجدها فيها ثم فجأة تذكر الإجازة التي قضياها في منطقة البحيرات واتجه شمالاً ووجد القرية التي سألت فيها.

وسمعت طرقة على الباب مرة ثانية.

«نعم»

فتح بولت الباب وأطل برأسه.

«هل انتهيت؟»

هزت ميلي رأسها وأشارت للصينية.

«نعم أشكرك. كان الطعام لذيذاً». وقد أكلته بشهية.

وابتسم بولت.

«هذا حسن. كل شيء يبدو أكثر إشراقاً عندما تكون المعدة ممتلئة».

«هل تظن ذلك؟»

وفتح بولت الباب وقال:

«بلا شك. هل ستنزلين إلى الطابق الأرضي؟»

«هل سيسمح لي بذلك؟»

«يمكنك أن تفعلي ما تريدين يا آنسة».

«هل هذا صحيح؟ أين... أين الفيكونت؟»

ورفع بولت الصينية.

«إنه في المكتبة يا آنسة. يستحسن عدم إقلاقه».

ونظرت إليه بأمل.

«هل تصورت أنني قد أقلقته؟»

وهز بولت كتفيه ثم نظر إلى ملابسها غير المنظمة ثم قال:

«سأقوم أمر الفراشات لما بعد عندما أرتب السرير».

«لا... لا... لا تتعب نفسك».

«إن ذلك لا يتعبني يا آنسة».

«أستطيع أنا أن أرتبه».

لم يرد «بولت» على ذلك وسار نحو الباب.
«إنه يوم جميل.. ألا تحبين الخروج؟»
وضحكت فيه «جيليان»
«في الخارج؟ ماذا يقول الرجل في ذلك. قد أذهب..»
كان تعبير «بولت» ساخراً
«لا أنصحك بالمخاطرة يا آنسة. إن شيئاً مخيفاً على المصطبة ... ولا أحب أن أراك فريسة له».
صمتت «جيليان» رغماً عنها
«إذاً من حسن الحظ أنك لم تكن معنا بالأمس».
قالت وهي تشعر عند تذكرها لحوادث الأمس المخيف.
«نعم لقد سمعت يا آنسة».
قالها «بولت» وهو ينصرف بإمالة خفيفة لرأسه.
ونظرت «جيليان» حول الغرفة ثم تبعته على السلالم العريضة إلى الجسم الشمس في الطابق السفلي وتقدم «بولت» من بابها مطلي باللون الأحمر خلف السلالم ليدخله بدون أن تكون ورائه.
ووجدت نفسها في مطبخ فسيح الأرض المغطاة بالخشب اللامع من كثرة تنظيفها ورغم أن المطبخ كان قد تم تجديده بأنواع صلب وبحوض من الصلب إلا أن الفرن الضخم الذي كان أداة الطبخ الوحيدة لما مضى بقي كما هو. كذلك المدفأة من الرصاص الأسود والنار تزأر فيها وكان هناك باب مفتوح يؤدي إلى المخزن.
ووضع «بولت» الصينية على لوح التصفية وبدأ يضع الأطباق المستعملة في الحوض ونظر إلى «جيليان» وهو يبتسم قائلاً:
«لا بد أنك تظنين أن هذا العمل غير معتاد بالنسبة إلى الرجل، أليس كذلك؟»
هزت «جيليان» كتفيها بلا تحديد ولمحت ناحية المنضدة الخشبية النظيفة التي تتوسط المطبخ ثم قالت بصراحة:
«لا أظن أنه عمل غريب بالنسبة إلى رجل هذه الأيام ولكني أعترف أنك لا تبدو

الشخص المناسب لهذا العمل».
وضحك «بولت» قائلاً:
«لا.. لا أظن أني كذلك».
ونظرت إليه «جيليان»
«ولكن هذا لم يكن عملاً دائماً.. أقصد أن هذا ليس عملك الوحيد، أليس كذلك؟»
«إنه الآن».
وقال «بولت» وهو يغمس يديه في صابون الحوض:
«ولكن أظن يمكنك أن تعتبريني صاحب سبع مهن. في البداية كنت في الجيش والتحقت به وأنا ما زلت صبياً. ثم عندما تركت الخدمة عملت مصارعاً للثيران. ولكن هذا العمل كان مملاً ولم يعجبني. ثم أصبحت ميكانيكي سيارات».
ثم توقف لحظة واستطرد:
«والآن أنا سيد منزلي».
ونظرت «جيليان» ...
«وأنك غير المرتبط بالزواج، أليس كذلك؟»
قال بهدوء وتأكيد:
«إنه رجل عظيم».
قالت «جيليان»:
«نعم.. ولكن اعذرني إذا استطعت بحكمي الشخصي.. وهل تعرفه من مدة طويلة؟»
«منذ حوالي عشرين سنة».
«ولكنك لم تعمل لديه كل هذه المدة».
«بالطبع لا. من أجل هذا لا يهم. كان والده هو الضابط الذي أعمل تحت إمرته في الجيش».
«آه.. فهمت».
والتفتت «جيليان» نحو الحوض. كانت النوافذ العريضة تطل على فناء خلف المنزل وعلى جانبيه بعض الشجيرات والنباتات البسيطة.

www.lilas.com

وفاجأت "بيتي" الجميع إذ قالت وهي تحاول أن تجعل سؤالها يبدو عادياً:

«أخبرني... كيف تحصلون على الأشياء الطازجة مثل اللبن والبيض، وحتى عن الرسائل؟»

«بالنسبة إلى الرسائل فإننا نحضرها من مكتب بريد خاص بنا.»

هكذا أجاب "بوك" بهدوء معطياً كل أسئلتها في هذا الاتجاه.

«ولدينا بقرات وبعض الدجاج... وفي الصيف نزرع خضرنا وفاكهتنا ونحفظها لنستعملها فيما بعد. لدينا اكتفاء ذاتي. وحتى خبزنا فأنا أقوم بخبزه. لكن لماذا تسألين؟»

«الآنسة "جيسي" تبحث عن طرق التغلب بها علينا يا "بوك".»

هكذا علّق صوت متكاسل ساخر من خلفها، واستدارت "هيلين" فوجدت "دومينيك لايول" يستند بلا مبالاة على الباب. كان قد عاد إلى ملابسه السوداء، ورغم أن شعره الفاتح كان مظهره شيطانياً لدرجة مقلقة، وأحنى رأسه بأدب نحو "هيلين" واستطرد قائلاً:

«صباح الخير يا آنسة "جيسي". أظن أنك لست جيدة. أخبرني "بوك" أنك كنت مستعدة لتناول إفطارك. هل استمتعت به؟»

كانت "هيلين" تتمنى لو استطاعت أن تقول له إنها لم تذق طعامه ولكن هذا كان مستحيلاً بالطبع، وبدلاً من ذلك حاولت أن تتخذ موقفاً متحدياً:

«هل تظن أن والدي سيكتفي بالضغط عندما يكتشف بعد حين أنك استبقيتني هنا رغماً عني؟»

انتصب "دومينيك" وقال:

«أتصور أن هذا سيقلق صاحب الشأن.»

صرخت "هيلين" بدهشة واستنكار:

«في... أنه يقصد أباه.»

«هكذا يقول صاحب لي: أنا لن أكون موجوداً هنا بل أنت.»

ابتسمت "هيلين" قائلة:

«هل تظن أنه سيترك الموضوع هكذا ببساطة؟ إنه سيجدك أينما كنت.»

قال "دومينيك" بسخرية:

«هذا أكثر من إذا كنت أملك بقرات والمال في مجال البحث والتحري. إذا كان وسط الصحافة بأكمله لم يستطع اكتشاف مكاني منذ عدة سنوات فلا يمكن أن أثق بأي كان بخصوص جهود والدك.»

«يستطيع أن يعطي القصة للصحافة، ويستطيع أن يستأجر أي عدد من المخبرين.»

«هل يستطيع ذلك؟»

وقال مفكراً:

«هذا جدير بالاهتمام وخاصة أنه يصدر من إنسانة كانت بالأمس فقط تحاول أن تؤكد لي أنني إذا تركتها تذهب فلن تخبر أحداً بمكاني.»

اندفع الدم في وجنتيها وردت قائلة:

«كنت أعني ما أقول.»

«حقاً؟ ولكنك الآن غيرت رأيك.»

«نعم... لا... أقصد...»

وبحثت عن الكلمات.

«أحاول فقط أن أبين لك أنك إذا وقفت في طريق والدي فستدفع الثمن.»

«تهديدات يا آنسة "جيسي".»

وهزت "هيلين" رأسها بعجز:

«لا تراوغني في الكلام. إذا تركتني أذهب سأنسى أنك هنا... أما إذا لم تفعل... فأنا لست مسؤولة عن النتائج.»

وأدار "دومينيك" شفتيه:

«نعم... هذا طريف جداً بالتأكيد.»

ثم نظر إلى "بوك" قائلاً:

«هل تظن أننا نستطيع أن نشرب القهوة؟ أود أن أستريح قليلاً.»

ورد "بوك" قائلاً:

«بالطبع.»

وجرت «هيلين» نفسها وهي تشعر كطفلة متعبة

نظر «دومينيك» إلى وجهها العابس والفرح يعلوه:

«هل تشربين القهوة معي؟»

هزت له رأسها وردت بوقاحة:

«انت عطشى؟»

«كلا الشاي»

هز «دومينيك» كتفيه وخرج وترك الباب يغلق وراءه. وعندما خرج أحست «هيلين» أنه لو لم تكن قد تصرفت بهذا التعجل. فرصتها الوحيدة في الهرب تكمن في محاولة إقناعه بتغيير رأيه وطالما أنها تتصرف كتلميذة صغيرة مدللة فلن تتمكن من الوصول إلى هدفها

وجلست بكسل على طرف أحد الكراسي الخشبية أمام المنضدة النظيفة وأخذت تراقب «بولت» وهو يعد القهوة ويضع فنجاناً وطبقاً وسكراً على صينية من الفضة.

واتجهت نظرة «بولت» إليها مرة، ثم كأنه شعر بالشفقة عليها قال:

«هل تريدين الفطور؟»

نظرت إليه قائلة:

«ماذا تعني؟»

«تعرفين ما أعني، صينية القهوة هل تريدين أخذها للسيد «لايول»؟»

هزت كتفيها ثم قالت بكسل:

«إذا أردت»

نظر «بولت» إلى وجهها المتكبر وقال:

«هل تريدين نصيحة مني؟»

قطبت جبينها:

«أي نوع من النصيحة؟»

«لا تكثري من التهديدات. السيد «لايول» ليس ذلك الصنف من الرجال الذي يقبل هذا الموقف ببساطة.»

بل... عطاء.

ورفعت «هيلين» اكتافها بأن السيد «لايول» يجب أن يطاع دائماً.

«وماذا تريدني أن أفعل؟ هل أجلس وأنتظر حتى يقرر أن يتركني أذهب؟»

«قد يكون هذا أفضل شيء تفعلينه»

«لابد أنك تمزح»

وهز «بولت» كتفيه العريضتين:

«لا أقلق من شأنه يا آنسة «جيمس». لا أظنني مخطئاً أن إصابته تنقص من رجولته.»

احمر خداها وقالت واثقة:

«لا أفهم ماذا تعني»

«أعتقد أنك تفهمين»

وقال وهو يصب القهوة:

«إن كونه يفضل العيش هنا بمفرده لا يعني أنه لا يشعر بالاحتياجات الطبيعية لأي رجل»

أمسكت أنفاسها وقالت بغيظ:

«كنت أظن أنك تستطيع أن تسد جميع احتياجاته يا «بولت»»

نظر إليها «بولت» نظرة طويلة متفحصة

«لا يا آنسة «جيمس» إن السيد «لايول» ليس ذلك النوع من الرجال»

لم تعرف «هيلين» أين تخفي وجهها لم تتصرف بهذه الطريقة السيئة من قبل. وكون «بولت» الذي عاملها بمنتهى الطيبة والعطف كان هو الذي تحمل ثورتها وسوء أدبها جعلها تشعر بالخجل الشديد.

وصاحت وهي تضغط بيديها على خديها الملتهبين:

«إني آسفة. إنه خطأ لا يغتفر»

ووضع «بولت» الغطاء على إبريق القهوة ودفع الصينية أمامها عبر المنضدة وقال برقة:

«اعتذارك مقبول. أرجو أن تهدئي نفسك. لا شيء من السوء بالدرجة التي

تواضعها. والآن هل ستسمحين بالقهوة للسيد "لايول"؟ ستجدينه في غرفة الجلوس وقد وضعت الصحون من باب الاحتياط.

سقطت يداها إلى جانبيها وابتسمت قليلاً.

- إنك لا تستسلم أبداً. أليس كذلك؟

- قال إني سأقاتل بطبعي. هل تعرفين من أي باب تدخلين؟

هزت رأسها بالإيجاب.

- أظن ذلك.

التقطت الصينية وسارت إلى باب المطبخ ثم استدارت قائلة:

- أشكرك يا "برايت"...

- إنه جزء من عملي يا آنسة.

عندما فتحت "جيلين" باب غرفة المعيشة وجدت "دومينيك لايول" مستلقياً على الأريكة وعيناه مغلقتان. وانحبس تنفسها عند دخولها وعندما رأى أنها هي التي تحمل صينية القهوة أنزل ساقيه إلى الأرض وحاول القيام. ولكن وجهه تقلص من المعاناة وسقط مرة أخرى على الأريكة ويده تضغط على جبهته من الألم.

وضعت "جيلين" أثقالها ثم وضعت الصينية وأسرعت إليه قائلة بقلق:

- هل أنت بخير؟

سقطت يده إلى جانبه وأطلق شبه زفرة وهو ينظر إليها ثم قال بخفوت:

- نعم... إني على خير ما يرام... أشكرك.

وقفت "جيلين" تريد أن تلقي عليه نظرة ونحوها بقلق... كان يبدو شاحباً ومتعباً وتمنت لو استطاعت أن تفعل شيئاً من أجله... إن رؤيتها له في هذه الحال لم تقلقه بأي شكل من شكلها برغم انفعالها إزاء ذلك. كان المفروض أن يكون شعورها... إنها عدوة برغم كل شيء، وكان المتوقع أن تشعر بالسعادة لأن القدر يقتص منه بطريق أخرى. ولكن هذا لم يكن شعورها. كل ما شعرت به هو إحساس طاغ بالعطف عليه ورغبة متزايدة بالانجذاب إليه.

صاح بخشونة:

- بحق الله لا تحدقي بي هكذا كأنك لم تري مثل هذه البشاعة من قبل! إني أعاني من الصداع النصفي... هل فهمت؟... فتشي أشياء أخرى.

ولوى شفتيه... ثم تحركت "جيلين" بقلق تحت نظراته الصفراء، مع أنها رأت إنساني عينيه يتسعان كالزجاج وحبات العرق تلمع على جبهته بعد المجهود الذي قام به في محاولة القيام.

وقالت محاولة مساعدته:

- هل هناك شيء أستطيع عمله؟

نظر إليها باحتقار ثم سألها:

- مثلاً اقترحي؟ رصاصة في رأسي أم طعنة؟

أجابت بسرعة وهي تنظر بعجز حول الغرفة:

- لا هذا ولا ذاك... هل لديك دواء لذلك؟ أستدعي "برايت".

وقال أخيراً وهو يغلق عينيه:

- حبوبٌ أقراص.

- أين هي؟

- لست مضطرة الآن لتساعديني... "برايت" يمكنه إحضارها.

صاحت فيه:

- بحق السماء... سأحضرها... إني أريد ذلك... فقط أخبرني أين هي.

وفتح عينيه قليلاً وهو يسند رأسه على الوسادة... للحظة نظر إليها من خلال رموشه الكثيفة. كانت النظرة مظلمة... جعلت أطرافها تتخاذل والدم يجري بسرعة في عروقها.

ثم أغلق عينيه مرة أخرى وقال:

- إنها في زجاجة في الدرج العلوي لمكتبي.

تحركت "جيلين" ثم توقفت بتردد. مكتبه؟ أين مكتبه؟ هل كان يعني ذلك المكتب في ركن الغرفة... المكتب الذي رأت صورة الكاتب فوقه؟ عندما بدأت تسير نحوه قال بتعب:

- مكتبي في غرفة المكتب.

غرفة المكتب»

تساءلت «جيلان» أين غرفة المكتب؟ فتحت فمها لكنها صمتت. لا بد أنها تقع على الصالة وقد أصبحت تعرف أغلب الأبواب المطلة على الصالة.

خرجت بسرعة من الغرفة سعيدة لأن القهوة لم تكن موجودة ثم نظرت حولها ولاحظت بسرور أنه لم يكن هناك سوى باب واحد عدا الأبواب المعروفة لديها. أدارت المقبض ونظرت إلى الداخل. هناك مكتب ضخم من خشب الماهوجني عليه كثير من الأوراق والكتب، وعلى أحد جوانبه آلة كاتبة. لكن المكتب لم يكن هو الذي استحوذ انتباهها. بل فوق إفريز الشباك ... آلة تقريباً بالستائر الخضراء الثقيلة ... آلة التليفون!

وكان أول رد فعل لها هو أن ترفع السماعة وتستغيث ولكن الأحداث الأخيرة علمتها أن تكون أكثر حذراً إذ لو تأخرت ولو قليلاً لإجراء مكالمة تليفونية فإن «مونسيه لابول» سيشك فيها وإذا حضر ورآها... كما أن «بولت» لا بد سيحضر ليأخذ الصينية. فإذا علم أنها تنبهت لوجود التليفون لن يكون لديها الفرصة لاستعماله ولكن إذا أظهرت أنها لم تره...

أبعدت عينيها عن تلك الصلة القوية بالعالم الخارجي. ثم اتجهت إلى المكتب وجلست على الكرسي الجلدي الذي خلفه. لا عجب إذن أنه لم يكن يريدها أن تحضر له الأقراص. ولكن من الواضح أن حاجته الشديدة تغلبت على حسن تقديره. وتذكرت وجهه الذي يزداد الألم ففتحت درج المكتب الأعلى على الجانب الأيمن. ورغم أن مشاعرها كانت ثائرة ضده لموقفه منها لم تستطع تجاهل الأمر.

ونظرة سريعة إلى الدرج الذي فتحته أكدت لها عدم وجود زجاجة الأقراص فيه. أغلقته ثانية ثم فتحت الدرج الأيسر لوجدته مليئاً بالملفات ولكن في أقصى الداخل وجدت ما كانت تبحث عنه. زجاجة بنية فيها أقراص بيضاء.

ونظرت بدون فهم إلى الأوراق المكومة على المكتب ثم أغلقت الدرج وقامت لتذهب. عندما وصلت إلى الباب كان «بولت» خارجاً من المطبخ فالتقت ركبتاها عندما تذكرت أنها لم تستعمل التليفون. لمحها «بولت» وقطب جبينه عندما رآها تغلق باب غرفة المكتب وقال:

«هل تبحثين عن شيء يا آنسة؟»

احمرّ خداها وبدا عليها الشعور بالذنب. ورفعت يدها بالزجاجة وقالت وهي تشير ناحية غرفة الجلوس متظاهرة بالثبات:

«المونسيه مصاب بصداع شديد وقد أحضرت له الدواء»

قال «بولت» وقد بدا عليه الاهتمام:

«آه... سأحضر بعض الماء»

هزت كتفيها رغماً عنها وقالت بدهشة:

«إذا أردت»

وعاد «بولت» إلى المطبخ ودخلت هي غرفة الجلوس. كان «مونسيه لابول» ما زال مستلقياً على الأريكة وعيناه مغلقتان. أجبرت نفسها أن تتذكر أن هذا هو الرجل الذي يخطفها هنا رغماً عنها.

وسارت نحو الأريكة ونظرت إليه قائلة بهدوء:

«هذه هي الأقراص. «بولت» سيحضر لك بعض الماء»

ففتح عينيه المتعبتين وقال وهو يرفع نفسه ويأخذ الزجاجة:

«شكراً. إنها غلطتي لقد أجهدت نفسي في العمل»

وتطلعت «جيلان» وهي تراقبه يفتح الزجاجة ويخرج منها قرصين:

«في العمل؟»

ونظر إلى أعلى وردد:

«نعم ... في العمل ... هل ظننت أنني أقضي وقتي بالتكاسل؟»

وهزت كتفيها وسارت بعيداً عن الأريكة. كانت نظراته تتنقل فيها من هذه المسافة القريبة حتى وهو في حالة ضعفه.

وأجابت بغير مبالاة:

«بالطبع... لم أفكر في الأمر»

وانفتح الباب ودخل «بولت» وهو يحمل إبريقاً زجاجياً وسار عبر الغرفة إلى الأريكة ونظر إلى «مونسيه لابول» وقدمه بصمت.

قال وهو يصب له بعض الماء:

بعد هذا وأظن أنك يجب أن تستريح في الفراش.

ألقى «دومينيك» الأقراص في فمه ثم ابتلعها ببعض الماء وأعاد الكوب لـ «بولت» قائلاً بجفاف وهو يمسح فمه بظهر يده:

- لا أظن ذلك.

ونظر إليه «بولت» بلوم:

- أنت تعرف أنك يجب أن تذهب إلى الفراش.

ونظر «دومينيك» بسخرية في اتجاه «هيلين» وقال:

- هكذا تقول! وأراك خصيصاً لتناول القهوة بمفردكما.

وتوقعت «هيلين» بسخط ولكن «بولت» هز رأسه قبل أن تقول شيئاً وقال بحزم:

- ولكن بعد القهوة.

ولكن «دومينيك» أغلق عينيه مرة أخرى كما لو أن مجرد فتحهما يتعبه ثم قال بتسليم:

- حسناً .. سأخرج.

وتنهد «بولت» وبسط يديه نحو «هيلين» في حركة عاجزة. أحست بشعور سخيف من التعاطف مع «بولت» في اتفاقها الضمني على الرحيل. وتساءل «دومينيك» فجأة وبعنف كأنه على علم تام بالعلاقات الصامتة بينهما:

- بحق السماء .. كفا عن هذه الإشارات التي تخفيانها عني.

وسار «بولت» فجأة نحو الباب وهو يقول:

- سأحضر بعد خمس عشرة دقيقة.

بعد انصرافه وقفت «هيلين» في مكانها تتساءل، هل ما لم تذهب هي أيضاً. من الظاهر أنه سيذهب إلى فراشه لأن هذا في النهاية هو أحسن علاج للصداع النصفي. إن التفكير فيه في فراشه جعل السخونة تسري في جسمها. كان ضعفه الوقت مغرياً بشكل غريب وأجبرت نفسها أن تتذكر أنه كالحيوان المفترس الذي يحتفظ به وبذاته فهو بلا رحمة ولا يمكن الثقة بتصرفاته ومع ذلك كان قميصه مفتوحاً حول رقبته وكانت ترى بدايات الشعر الذي ينمو أسفل عنقه، وشعرت

برغبة قوية في أن تلمسه. وودت لو استطاعت أن تداعب جانبي رأسه بأطراف أصابعها وترى عضلاته تسترخي تحت يديها.

وفتح عينيه فجأة فوجد عينيها عليه. قال آمراً:

- اجلسي .. إني أستطيع أن أتحمل أن يحوم علي أي شيء. سخيف من هذا القبيل.

وأخفت بجرأتها نظرتها الكسيرة واتجهت بعصبية إلى الكرسي الذي يواجه المدفأة وجلست على حافته وهي تلوي يديها وفكرت أنه من الأفضل أن تستعمل التليفون بعد أن تستطيع ذلك. لا بد أنه يهتم بـ «دومينيك» الأول. أكثر من اللازم.

وعندما تذكرت التليفون أخذت تفكر في الوقت المناسب لاستعماله. الوقت المفترض يتم بعد انتهاء السهر هذه الليلة إلا أن العائق الوحيد قد يكون انطلاق شيء في المنزل في ذلك الوقت.

- ألن تصبي القهوة؟

أيقظها صوته القاسي من أفكارها فجفلت بعنف.

- حسناً .. أه .. نعم إذا أردتني أن أفعل.

واستدارت ناحية المنضدة المنخفضة ووضعت الأقداح في أطباقها بعناية بالغة. أحاطتهما رائحة القهوة ولكن يديها كانتا ترتعشان وهي تسأل الآخر:

- حليب وسكر؟

- لا .. كما هي.

أجاب وهو يعتدل في جلسته ليتناول القدح الذي قدمته له.

- أشكرك.

وصبت القهوة لنفسها ووضعت السكر وأخذت تقلبه بشدة.

وسألها فجأة:

- هل غيرت رأيك؟

- غيرت رأيي؟ عن أي شيء؟

والملعقة المعلقة عليها الأمر.

«بالنسبة لشرب القهوة معي»

«آه.. فهمت»

قالت وهي تتنفس برهشة، وهزت كتفيها

«كان يسرني من غير الممكن أن أدع أي فرصة للاحتفاظ بتغيير رأيك»

وضاقت عيناه

«هل تعنين أنك تستطيعين ذلك؟»

وضعت قدحها الفارغ بحركات مضطربة

«لا أظن»

«ولكن ليس لديك مانع من المحاولة؟»

تنهدت

«قد أميل أن أحاكم الشعور بالترف»

«بالترف؟»

وهز رأسه

«هذا مفهوم القضي زمنه، وكيف تسرين أن تفعلي ذلك، بأن تجعليني أشعر بالاستقلال نحوك؟»

«لا أفهم هذا القصد»

«أظن أنك تفهمين. إن اعتقادك من خطأت كان يسر وطنيتك»

كانت عيناه تتفاديان عينيه ولكنها الآن نظرت إليه مباشرة:

«ما له من تفكير كريه»

هز كتفيه

«إنك تعتبرين المستقبل أنا أشهد لك بذلك. ولكن من الأفضل أن أعترف أني لا أنخدع بسهولة. ولا أحب أن تضعي نفسك في موقف قد يكون الخروج منه أصعب من الموقف الأول»

سألت بعدم ثبات:

«وما معنى ذلك؟»

كانت عيناه ملتقيتين كثيراً

«مساعدة لا حاجة بك إلى محاولة إغرائي واستمالة حيالك معي على أمل أن أنسحب من ناحيتك»

وهبت واقفة

«وإلا.. إنك تنسى غرورك»

«لا، أنا لا أفعل»

وقال بهدوء:

«هذا أنا أحذرك.. إنه أول خدمة أستطيع تقديمها بعد إعجابك بي»

كانت سخريته واضحة فأطبقت شفتيها. كانت ستطفئ معرفتها بوجود الشاعرين في حجرة المكتب وأيضاً على الأقل ليست كاذبة تماماً، ولكنها ظلت صامتة. ربما أنها بشكل خاص عن أنه شعر بانجذابها إليه وفسر ذلك تفسيراً خاطئاً. تصور أنها تفكر في استغلال شبابها وجمالها لتغريه وتثنيه عن هدفه. لكن هذا كان أبعد شيء عن الحقيقة، ففي الواقع كون هذا الرجل الضخم الذي بجسمه المتين استطاع أن يحرك أشواقها ورغباتها الدفينة جعلها تشعر بالاشمئزاز من نفسها. إنها لا تريد أن تنجذب إلى مديحك لابول. لا تريد أن تشعر بالارتباط بشخصيته القلقة، وعلى الأخص لا تريد أن تفكر في العلاقة التي هذا الانجذاب الذي قد يثيره الشعور بيديه القويتين وجسمه النحيل.

قالت وهي ترتعش:

«أظن أنك كريه.. إنك فاسد.. سمحت للقشرة التي في جسمك أن يفسد روحك»

فتح عينيه على آخرهما فكانتا تلمعان كالفحم، ثم قال بخشونة:

«نعم.. هذا صحيح ومن الأفضل لك أن تتذكري ذلك دائماً»

نظرت إليه عيناه نظرة أخيرة ثم اتجهت إلى الباب. كانت تشعر برغبة في البكاء، ويصطرع في رأسها. لحظة بدا إنساناً، وقد استجابت بطبيعة لتلك الشخصية الرقيقة.

٤ ـ يوم أبيض

قضت «هيلين» بقية اليوم في غرفتها على غير رغبتها. قضت بالفراغ بقية ماضياتها من الكتاب ووضعتها في أدراج الصوان وخزانة الملابس الضخم. وكانت تحاول أن تقول لنفسها إنه لا داعي لذلك لأنها ستترك هذا المنزل قريباً إلا أن هذا لم يكن يبدو حقيقياً.

في الساعة الواحدة حضر إليها «بول» ليخبرها أن الغداء حاضر. وتبعته لكن بعد بضع دقائق فتح باب المطبخ وقال:

«أرجو ألا يضايقك هذا ولكني جهزت الغداء هنا لأن السيد «لايول» لن يأكل. فكرت أنك قد تفضلين الأكل معي».

تبعته «هيلين» إلى المطبخ وكلاهما صامتان بالكتاب.

«طبعاً ـ وإن كنت لست جائعة كثيراً أنا أيضاً».

ولم يره «بول» في أجلسها أمام المنضدة الخشبية وبدأ يضع أمامها أطباق الطعام. ولما كان الطعام الذي أعدّه كانت رائحته جميلة لما فتح شهيتها.

وقالت بعد أن انتهيا من الطعام وأخذ يصب لها قدحاً ثانياً من القهوة:

«كان الطعام لذيذاً يا «بول». ستجعلني أزداد وزناً إذا لم أكن حريصة».

ضحك «بول» وقال وهو ينظر إلى جسمها النحيف:

«أشك في ذلك كثيراً كما أنه لن يضرك أن تكتسبي بعض الشيء».

ابتسمت «هيلين» وشعرت بالاسترخاء الكامل لأول مرة منذ أن استيقظت هذا الصباح. «بول» رفيق طيب، ليست له متطلبات مثل سيده.

وحين ذكر «مرسيدس لايول» تعب عنها سرورها. يجب ألا تنسى أبداً أنها هنا

بالرغم منها وبينما كان صحابها طريفاً فهو سجان.

قالت وهي تعبث بأصابعها في طرف القدح:

«هل ذهب الشيطان الشرير؟»

هزّ «بول» رأسه بالإيجاب.

«نعم منذ أكثر من ساعة».

كان يجب أن تكتفي بهذا ولكنها لم تستطع. سألت بطريقة عرضية:

«ما العمل الذي يقوم به؟»

نظر «بول» في قدحه وقال:

«إنه يؤلف كتاباً يا آنسة».

أثار هذا اهتمام «هيلين». على الفور قالت:

«كتاباً؟ أي نوع من الكتب؟»

قال «بول» معتذراً:

«لا أظن أنني يجب أن أناقش أمور السيد «لايول» معك يا آنسة. لماذا لا تسألينه هو؟»

تنهدت «هيلين».

«حقاً ولماذا».

وضع «بول» قدحه ثم قال:

«دعيني الآن أسألك سؤالاً. ما الذي حدث بينكما هذا الصباح؟»

ركزت بصرها على بقايا القهوة في قدحها ثم قالت بخشونة:

«لا شيء يذكر».

قطب «بول» جبينه.

«هكذا قلت أنت».

«هكذا قلت أنا».

سألت «هيلين» بغيظ:

«لم أقل له شيئاً فقد أحضرت له أوراقه اللعينة.

والمهم من ذلك أنه لم يقدر هذه المجاملة».

«إن هذا الضيف كبير لما حدث.. إن الخروف رجل فظ»

قام «بوك» رجاً جميع الأطباق المتسخة وهو يقول:

«يجب أن تفهمي..»

ولكنها قاطعته بحدة:

«ماذا يجب أن أفهم أنا أي شيء؟ لماذا لا يحاول هو أن يفهمني.. كيف أشعر؟ أنا لم أطلب أن أحضر هنا وبالتأكيد أنا لا أريد أن أبقى هنا»

نظر إليها «بوك» بعطف وقال:

«أنا لا أحب أن أراك تبكين»

قالت «هيلين» بغضب:

«أنا أبكي؟ لماذا افترض أني أبكي؟ أظن أنه رفع وقبل الأدب وأخبرني كيف يمكنه أن يؤذيني؟»

رفع «بوك» حاجبيه قائلاً بمرح:

«أخبريني أنتِ»

على الصعود إلى التل ورغم اعتراضه أصرت «هيلين» على مساعدته في تنظيفها وبعد أن انتهيا وضعا كل شيء في مكانه وأصبح المطبخ نظيفاً لامعاً مرة ثانية قال:

«السيد «لامبرك» سيأتي على الأرجح في ثلاثة طوال بعد الظهر هل تريدين أن تأتي معي لرؤية الحيوانات الأخرى؟»

نظرت «هيلين» إلى النافذة كانت الشمس الساطعة قد انتشرت جزئياً وربما كان الثلج سيعود للسقوط مرة أخرى. ولكن إغراء الخروج في الهواء الطلق كان لا يقاوم فقالت ببساطة:

«أنا أحب ذلك جداً»

وبدا عليه السرور:

«هل لديك حذاء عالٍ غير هذا وملابس ثقيلة؟»

«نعم، كنت أتوقع أن أقوم برياضة المشي»

وابتسمت ابتسامة ساخرة مسرورة بنفسها.

«حسناً هذا معطفي..»

«بالمطبخ. إنه في غرفة الملابس. علقته هناك هذا الصباح»

سارت «هيلين» إلى الباب بحماس قائلة:

«أعطني خمس دقائق فقط وسأكون مستعدة»

وجرت صاعدة السلالم إلى غرفتها وهي تتساءل إذا كانت تستطيع انتهاز هذه الفرصة لتستعمل التليفون. كان «بوك» مشغولاً في المطبخ يستعد للخروج و«توميسك لامبرك» في الفراش. لكن لا. إن فكرة إفساد العلاقة بينها وبين القائم الضخم لم ترق لها وهي لا تريد أن يضبطها في ظروف سخيفة. فلتترك ذلك إلى المساء حاجة في أصلاً أن تخرج. ارتدت مرة أخرى وقد أدخلت ساقي بنطلونها الجينز في حذائها العالي ولبست كنزة إضافية. ثم استعادت معطفها الأحمر من غرفة الملابس في الصالة وحمدت الله أنه لم يتأثر من الماء الذي بلله ثم جمعت شعرها داخل قلنسوته وذهبت لتبحث عن «بوك».

وكان الجو بعد ظهر ذلك اليوم جميلاً ذكرها بطفولتها عندما انتقلت إلى المدن بنات الشتاء قضيت بارزة حيث تتحول الأرصفة بوحل قذر وتصبح السيارات أماكن خالية تنتقل من مبنى مغطاة إلى آخر. حتى الوقت المخطط لقضاء عطلات الشتاء في أماكن مثل «جامايكا» و«باربادوس» حيث الشمس ساطعة دائماً لتبعد كآبة الشتاء. ولكن الأمر يختلف هنا. كان الثلج أبيض والهواء منعشاً ولم تكن تشعر بالبرد على الإطلاق فهي دافئة وصحتها جيدة وقد فرغت الجو من وحدة الدنيا وكان كل جسمها ينبض بالصحة والسرور.

كان «بوك» يعنى بالأبقار في الحظيرة فنظف مكانها وقدم لها التبن الطازج و«هيلين» التي كانت تخشى الأبقار بذلت ما استطاعت من مساعدة لكنها كانت تفضل حظيرة الدجاج حيث كانت تجمع البيض الطازج.

ورأت زحافة مستندة إلى الجدار فأشارت إليها سائلة «بوك» فأوضح لها أنه كان يستعملها أحياناً في نقل طعام الحيوانات. ثم قال:

«وجدتها في سقيفة قديمة عندما أتيت. ومن المحتمل أنها ملك لبعض الأطفال الذين كان آباؤهم يأتون للزراعة»

لمعت عينا هيلين وسألت:

«هل يمكننا أن نستعملها؟»

استغرب بولت:

«هكذا تمزحين؟»

«ألا يوجد منحدر هنا يصلح لأن نستعملها عليه؟»

ضحك بولت قائلاً:

«هل تقصدين أن نلعب التزلج؟»

«نعم - هل تستطيع أن تجرّه؟»

كانت تستعطفه بكل سحرها.

نظر بولت متفحصاً المكان حوله ثم قال:

«حسناً. هناك منحدر إلى جانب المنزل ولكنه ينتهي إلى الجدول، والجدول مغطى بطبقة رقيقة من الثلج لا تحتمل ثقل أي شخص لذلك يجب تفاديه.»

«ستكون فرصة. أنا أستطيع أن أوجه الزحافة. أرجوك أن توافق.»

أخيراً استسلم بولت وسارا حول المبنى إلى جانبه وكان الثلج هنا نقياً لم يلمسه أحد وكانت هيلين سعيدة سعادة صبيانية بأن تسير فيه وتترك آثار أقدامها. كانت الزحافة كبيرة وتكفي لاثنين ولكن في البداية أصرّ بولت أن يقف في أسفل التل بجانب الجدول لئلا يقع ما تكره. ولكن عندما رأى أنها تستطيع أن تتحكم في الزحافة وافق أن ينضم إليها وأخذا ينزلقان معاً على المنحدر ضاحكين ضاحكة عندما انقلبت الزحافة عند القاع وألقت بهما في الثلج. وكانت أصعب مرحلة هي الصعود إلى أعلى التل مرة ثانية.

وعندما شعرت هيلين بالبرد في ساقيها قرر بولت أن يكتفيا بهذا القدر وسارا عائدين إلى المنزل في صداقة رزينة. ولاحظت هيلين أنها لم تفكر مرة واحدة في الحرب خلال هذه الساعات التي قضياها في الثلج.

أبدلت ملابسها قبل وجبة العشاء وبحثت بين ما في الدولاب من الثياب فوجدت ثوباً طويلاً من قماش الصوف الجيرسيه المشجر بألوان زرقاء وخضراء. كان لونه يظهر جمال عينيها الأزرق المقترب بالخضرة وطوله يظهر استدارة جسمها برغم أنها لم تكن

تريد أن تعترف بذلك لكن رغبتها في أن تبدو بأحسن صورة كان سببها السخرية الهينة التي وجهها إليها موسيو لابول من قبل. كانت تتمنى أن يمدح مظهرها لتجد الفرصة لاحراجه ورد اعتبارها وكرامتها. ولكن أملها لم يتحقق. عندما دخلت غرفة الجلوس بعد قليل وجدتها فارغة. وبينما وقفت وسط الغرفة لا تدري ما تفعل، دخل بولت وقال باعتذار:

«السيد لابول لن ينزل إلى العشاء، وسأحضر لك عشاءك بعد دقائق.»

قالت هيلين لو أنها لم تهتم كل هذا الاهتمام بمظهرها - ثم شبكت يديها وقالت بحركة معبرة:

«هلا انضممت إليّ يا بولت؟»

نظر بولت إلى سرواله القديم وأكمام قميصه المطوية قائلاً:

«وأنا على هذه الصورة يا آنسة؟»

قالت هيلين بنفاد صبر:

«بالطبع - لا يهمني كيف يكون مظهرك - أنا لا تعجبني فكرة تناول الطعام بمفردي.»

استرخى بولت:

«حسناً يا آنسة - أمهليني وسأكون معك على الفور.»

كان بولت قد أعد هذه الليلة شرائح من اللحم مطبوخة في صلصة البصل وجزراً وكان الحلو فطيرة شوكولاته. كما شربا عدة كؤوس من زجاجة شراب أحمر. وعندما انتهيا جلست هيلين مسترخية في كرسيها وابتسمت له بكسل:

«إنك حقاً أحسن طباخ، هل كنت طباخاً في الجيش؟»

وهز رأسه بالنفي:

«لا يا آنسة في الأسطول.»

«فهمت، ولكن كيف تعلمت الطهي؟»

هز بولت كتفيه:

«علمت نفسي يا آنسة. كما قلت لك أنا صاحب سبع مهن - أعمل كل شيء.»

نظرت هيلين في أعواد النار في المدفأة.

«وأنت الآن تعمل لدى السيد «دومينيك لابوله»؟»

«نعم».

«هل كنت تعمل عنده قبل الحادث؟»

«نعم».

«وأنت كنت الميكانيكي له؟»

«نعم».

فكرت «جيليان» في ذلك.

«كان حادثاً مروعاً... أليس كذلك؟»

قال «بولت» بأسى:

«مات رجلان على الفور».

«أظن أنك كنت تعرفهما».

«بالطبع كان شقيق السيد «لابوله»».

ابتسمت بشفقة:

«هل كنت أنت تقود؟»

هز «بولت» رأسه بالنفي:

«لم يكن ذلك معلوماً لكثيرين. كان يتسابق باسم مستعار لئلا يختلط الأمر مع «دومينيك»».

تحركت مشاعر العطف فيها:

«هذا فظيع».

«نعم».

قال «بولت» وهو يضع الزجاجة الفارغة على الصينية ويمد يده في جمع الصحون المتسخة:

«أظن أنك كنت ما تزالين صغيرة في ذلك الوقت».

انحنت «جيليان» في جلستها وقالت:

«كنت أبلغ السادسة عشرة على ما أظن. وكان والدي يهتم جداً بسباق السيارات ويحتفظ بكل الصور وكل مقالات الصحف. تأثر كثيراً بالحادث».

قال «بولت» بصوت يكاد يكون غير مسموع:

«من منا لم يتأثر؟»

ثم استطرد:

«أتذكر من أي أخبرتني عن [illegible] لندن. لم أزرها منذ سنوات».

قالت «جيليان» وهي تلمس ذراع الكرسي:

«لندن؟ إنها كما هي».

«ألا تبدين متحمسة».

ابتسمت قليلاً:

«لا... لست متحمسة».

«ماذا؟ إنها بلدك. أليس كذلك؟»

وضحكت على جهل ما قاله:

«لا أعيش هناك».

«ولكن لديك أهل. أليس كذلك؟ على الأقل والدك».

«[illegible] والدي [illegible] الأب [illegible]».

«ألا تحبينها؟»

«إطلاقاً».

هزت كتفيها:

«ليست سيئة على ما أظن. ويمكن أن تقول إننا نتحمل بعضنا».

«هل لديها أولاد آخرون؟ هل والدك له أولاد آخرون؟»

«للأسف لا... أنا ابنته الوحيدة».

وجعدت أنفها وأضافت:

«وهذا يحزن «إيزابيل» كثيراً».

«ولماذا؟»

«أوه... إنها قصة طويلة لا تهمك».

«قد تهمني».

وقطبت جبينها.

«عندما كان عمري اثني عشر عاماً تزوج والدي من إيزابيل. كان هذا أول زواج لها وثاني زواج له. كانت والدتي قد توفيت وأنا صغيرة جداً. وبالطبع كانت إيزابيل تتوقع أن ترزق بأطفال ولكن هذا لم يحدث. وقد رفض والدي أن يتبنى أي أطفال»

ضحكت قليلاً ثم قالت:

«أظن أنه كان المفروض أن أشعر بالامتنان ولكن هذا ليس شعوري»

سأل بولت:

«ووالدك يدير تلك الشركة الكبيرة، شركة هندسة أليس كالاندا؟»

«نعم، شركة لورب الهندسية.. إنه المدير المسؤول وقد ضاعف أمواله كثيراً خاصة أنه كان يكاد يكون مفلساً عندما توفيت والدتي»

وكان بولت يتحدث باهتمام:

«وكيف أصبح ناجحاً؟»

«تزوج إيزابيل لورب»

هز بولت رأسه.

«آه فهمت.. إنه داهية»

«نعم أليس كالاندا»

أضافت هيلين:

«وأدخلني مدرسة داخلية حتى كبرت وأصبحت أستطيع الاختلاط بالمجتمع»

كانت نظرة بولت رائقة.

«أنا متأكد أن والدك فعل ذلك لأنه اعتقد أن ذلك أحسن الحلول»

«أحسن الحلول لمن؟»

«لكم جميعاً على ما أظن»

«أبي كان.. أبي رجل طموح وأمي وحدها تستطيع أن تكبح جماحه. وعندما توفيت..»

ثم تنهدت هيلين.

«ما زال طموحاً لكنه الآن يحتاج إليّ ليحقق أهدافه»

«وبقيتُ فريسته»

«نعم»

«لهذا كان يخطط لزواجي على ما أظن»

فابتسمت ابتسامة حزينة.

«بولت أيضاً ذكي جداً أليس كالاندا؟»

وضحك بولت.

«أظن أن الأمر واضح. ومن هو هذا الرجل؟ هل هو من الأرستقراطيين أو من الصاعدين؟»

«خليط من الاثنين على ما أظن. والده يملك حصة هامة في شركة بريد والذي الاندماج معها وحده من سلالة الأراضي الأرستقراطية»

«فهمت.. إنه اختيار عظيم»

قالت هيلين بحركة لا إرادية:

«أبي... مايك على ما يرام وأنا أستريح إليه. قضينا أوقاتاً سعيدة معاً.. ولكني لا أحبه»

«هل أنت متأكدة من ذلك؟»

«نعم يا بولت. تعرفت إلى شباب كثيرين. بعضهم صغير السن وبعضهم ناضج ولكني لم ألتق الشخص الذي يمكنني أن أتصور العيش معه بقية عمري إلى جانبه.. أظن أني لا أهتم كثيراً بالرجال... أقصد من تلك الناحية»

ولمعت عينا بولت.

«حقاً هذا كلام غير معقول»

هزت رأسها.

«لا.. إنه ليس كذلك أبي.. لقد حل الشراب عقدة لساني... أنا لست معتادة على الإفصاح بما يتعلق لأحد»

قال بولت مؤكداً بجدية:

«من الجائز أنه حان الوقت الآن لتسأل. هل تتكلمين مع زوجة أبيك إيزابيل؟ بالطبع لا. ليس بالطريقة التي تقصدها في أي حال»

«ملكة».

«لأنها لن تهتم ـ شيبا ما يكفيها من انشغالاتها الخاصة لايضرها عن أن تشغل بالها بشؤوني أنا».

«والملكة؟»

«أظن أنه يمكن أن يحركني أتحدث معه ولكنه لا ينصت لما أقول. وخاصة إذا كان هناك شيء لا يريد أن يسمعه».

رفع «بولت» الصينية وقام وهو يقول:

«أظن أن هذا يوضحه».

قطت «هيلين» باستمتاع وسألته بكسل:

«هل أخبرك أحد أنك مستمع جيد؟»

«لا. ولكني مستعد دائماً للاستماع إلى الاطراء».

ثم بعد خطوات قال:

«والآن سأغسل هذه الصحون وأذهب للنوم ـ أنا متعب».

«نعم وكذلك أنا».

قالت ذلك وهي تتثاءب. ثم تذكرت ماذا عليها أن تفعل:

فأضافت وهي تقول:

«هل فكرة.. أنا لم أر شيبا اليوم».

ونظر «بولت» حوله.

«لا. كانت في الغداء هذا الصباح ثم ذهبت مع السيد «لايول» إلى غرفة نومه منذ دخل لينام».

«هل تنام في غرفته؟»

هز «بولت» رأسه بالنفي:

«بالطبع لا. سأحضرها إلى الدور الارضي قبل النوم. يجب أن أخرج القسحة».

«إذن فهي تظل في المنزل ليلاً».

نظر إليها «بولت» نظرة تقليدية:

«هل تفكرين في الهرب ـ أم ماذا؟»

«ماذا؟»

صرخت «هيلين»

«لا كنت أريد فقط أن أعرف».

«حسناً ـ في الواقع أنها تنام في المطبخ».

«دهشت ـ إنه أمر غريب أن يحتفظ بهذا الحيوان كأنه أليف أليس كذلك؟»

«ربما ـ أعطاها أحد الأصدقاء السيد «لايول» ولكن هذا الشخص سيستردها قريباً لسوء الأنجاب».

ابتسمت «هيلين» لهذا الخبر.

«آه حسناً ـ تصبح على خير».

«تصبحين على خير يا آنسة».

وخرج وتركها ـ تساءلت ما ستفعل الآن؟ هل ستبقى هنا حتى يذهب «بولت» إلى حجرة نومه في الطابق العلوي وتحضر الفهدة وتأخذها إلى الخارج ثم يذهب لينام ـ لا إن هذا قد يثير الشك. أحسن خطة هي أن تذهب إلى غرفتها وتنتظر حتى يهدأ المنزل.

بعد أن اتخذت قرارها صعدت بهدوء إلى غرفتها. كانت خائفة لعلها أن «شيبا» موجودة في مكان قريب لكنها وصلت بسلام. وخلعت ثوبها الطويل وارتدت البنطلون الجينز والفانلة الصوفية وجلست تنتظر.

لم تكن الغرفة دافئة رغم التدفئة الكهربائية كغرفة الجلوس في الطابق الأرضي. وبعد قليل بدأت ترتجف. وشعرت أنه مر وقت طويل جداً قبل أن تسمع صوت «بولت» وهو يصعد السلالم. ثم سمعت أصواتاً في الطرف الآخر من الممر فتأكدت أن «دومينيك لايول» ما زال يقظاً أيضاً.

فقامت وأخذت تذرع الغرفة لكنها استمرت تشعر بالبرد. فخلعت حذاءها وقفزت إلى السرير وسحبت الغطاء عليها. وشعرت بالدفء والحرارة تشع من زجاجات المياه الساخنة التي وضعها «بولت» بين الملاءات.

كان الثلج في الخارج يعطي إضاءة غريبة للغرفة. وسمعت الريح تصفر تحت النوافذ. وكان السرير دافئاً. وتثاءبت والنعاس يداعبها. وأغمضت عينيها ـ كان «بولت» لطيفاً جداً. ولكنها هي التي تكلمت طوال الوقت هذا المساء. إنه يعرف

كل شيء عنها الآن حتى عن مايك... تثاءبت مرة أخرى. أوه. لا أهمية لذلك إنه ليس سراً.

ثقلت عيناها أكثر فأكثر. تنهدت ثم استغرقت في النوم. وعندما فتحت عينيها مرة أخرى كان ضوء النهار يملأ الغرفة وبشدة أسفها أدركت أنه الصباح.

٥ ـ الكتاب

لحسن حظ هيلين أنها استطاعت غسل وتغيير ملابسها قبل أن يحضر بول. بانتظارها لم تكن تريده يرى أنها نامت بكل ملابسها لئلا يأخذ انطباعاً خاطئاً عنها. أما الآن وهي أمام المرآة تمشط شعرها وتبدو نشيطة وجذابة، ارتدت بنطلوناً من الجينز وكنزة بنفسجية ذات أكمام طويلة. طرق بول الباب وحياها باسماً

«صباح الخير. هل نمت جيداً؟»

استطاعت أن تخفي شعورها بالذنب.

«نعم، أشكرك. وأنت؟»

«نمت مثل الطفل»

قال وهو يضع الصينية التي يحملها على المنضدة بجانب سريرها:

«أحضرت لك فطوراً... وبيضاً مقلياً»

«هذا عظيم»

ثم قالت وهي تنظر نحو النافذة:

«هل سقط الثلج مرة أخرى؟»

«نعم ـ اليوم ليس صحواً كالبارحة، كما أن الجو أشد برداً»

وتنهدت هيلين:

«أوه... ليس مهماً»

جلست بجانب الصينية ثم سألت:

«كيف حال كاحلك اليوم؟»

قال بول بسرور ظاهر:

«أحسن قليلاً، سأراه بعد قليل»

ابتسمت لهيلين وتركت الغرفة.

استمتعت بإفطارها ولكن ليس كالأمس. أمس كانت جائعة جداً. لكنها اليوم متضايقة لأنها نامت هذا النوم العميق. كانت الوجبة شهية رغم ذلك وعندما انتهت حملت الصينية الفارغة إلى المطبخ وكانت تيبا مستلقية على السجادة في الصالة خارج غرفة مكتب دومينيك لايول وعندما نزلت هيلين السلالم رفعت رأسها ـ اهتزت تلك النظرة الخفيفة ولكن الكلبة لم تتحرك. وسارت هيلين بسرعة إلى المطبخ.

لم يكن بول موجوداً وبدون تفكير وضعت الأطباق في الحوض وفتحت الصنبور. ولم تكن غسلت أطباقاً منذ تركت المدرسة الداخلية.

ـ صباح الخير يا آنسة جيمس ـ هل أعطل عملك؟

ـ صباح الخير يا سيد لايول. إنك لا تعطل أي شيء. أية خدمة أستطيع أن أقدمها لك؟

كان يرتدي بنطلون جينز أزرق وقميصاً جينز مفتوحاً عند الرقبة مما يجعله يبدو رشيقاً نحيلاً وكان البنطلون الضيق يزيده طولاً. وعرجه لا يبدو ظاهراً طالما هو لا يتحرك. ولكن حتى عندما سار نحوها لم تجد في عرجه ما يثير اشمئزازها بل بالعكس فالطريقة التي كان يتحرك بها كانت جزءاً من شخصيته.

وقال يشرح:

ـ جئت لأعتذر عن تصرفي البارحة. أنا آسف.

كانت هيلين تتجاهل ـ توقعت أشياء كثيرة غضباً ومواجهة ونقداً حسياً ولكنها لم تتوقع هذا. تمنت لو أنه لم يفعل. كان أسهل عليها كثيراً أن تكرهه عندما يعاملها بعدم احترام.

وقالت بخشونة:

ـ أنا.. لا داعي لذلك.

ـ بل لا أوافقك.

قال وهو يقترب منها وبينهما مسافة صغيرة، ونظرة عينيه الصفراوين تقلقها أكثر من اللازم:

ـ عذري الوحيد أنني كنت متألماً ومع ذلك لم يكن لي الحق أبداً لقول ما قلته فرغم رأيك في لم أكن دائماً على هذه الدرجة من سوء الأخلاق.

سحبت هيلين يديها من الماء المختلط بالصابون وجففتهما. وكانت تشعر بشدة بقربه منها وكانت تشك أنه يعرف ذلك.

ـ حسناً. انتهى الأمر الآن كيف حال الصداع النصفي؟

ـ أحسن كثيراً.

كان يسند نفسه بيد واحدة على المنضدة الصلبة وتركت نظرها على أزرار قميصه الأسفل فوق حزام بنطلونه الجينز.

استطاعت أن ترد باقتضاب:

ـ حسناً.

ـ لا داعي لأن تقومي بغسل الأطباق.

ـ ولكنني أريد ذلك.

أجبرت نفسها على النظر إليه.

ـ هل تعلم أين ذهب بول؟

قال بدون تحديد:

ـ نعم أظن ذلك.

نظرت حولها.

ـ ظننت أنني قد أخرج قليلاً. يبدو أن الثلج سيسقط ثانية و...

قاطعها دومينيك وهو يفحص وجهها المحرج:

ـ هل تستطيعين عمل القهوة؟

قالت باستغراب:

ـ نعم، أظن ذلك.

قال وهو يتأمل وجهها لحظة ثانية:

ـ حسناً. أعدي لنا بعض القهوة إذا سمحت.

ردت هيلين:

ـ الآن؟

قال وهو يخرج صوب الباب:

«بالطبع. وأحضريها إلى المكتب عندما تنتهين، سنشربها هناك».

وأغلق الباب. فوقفت «هيلين» تحدق في المكان حيث كان يقف منذ لحظة. لم تكن تعرف إذا كان هذا إهانة أو تكريماً لها. لم تكن معتادة على تلقي الأوامر. لكنها شعرت أنه يروق لمس الزبون.

ولكن المكتب؟ طلب منها أن تذهب إليه هناك! وماذا عن التليفون؟

تركت كتابها وتطلعت لحظة حول المطبخ. كانت تعرف مكان البن لأنها رأت «بول» وهو يعد القهوة لها في اليوم السابق. أما جهاز تحضير القهوة فهو معروف لديها.

وجدت أنها تستمتع بإعداد الصينية بشيء من الفخار، وبالفنجانين اللذين استعملهما «بول». وأكثر من ذلك وجدت السخان الصغير الذي يوضع تحت إبريق القهوة ليبقيها ساخنة. كانت تتوقع كل لحظة أن يعود «بول» ويحاسبها على ما تفعله. لكنه لم يعد.

وعندما انتهت من إعداد القهوة حملت الصينية واتجهت بها إلى المكتب. لم تكن «شيئاً» مزعجة ولكن سرعان ما علت ضحكاتها عندما طرقت باب غرفة المكتب ففتح لها «دومينيك» الباب وكانت القهوة في أعقابه. وتكلمه أمرها بالخروج فخرجت إلى الصالة وجلست في وضعها الأول. تنحى «دومينيك» عن الباب ليسمح لها بالدخول. وجدت أنه أفسح مكاناً على مكتبه لتضع الصينية. وانتقلت نظرتها رغماً عنها إلى إبريق الشاي في الركن. لكن التليفون لم يكن هناك. توقف قلبها عن الخفقان لحظة. هل أخفاه؟ أم أزاله. لا يزال. أنها اكتشفته تمام رفعها لاحظت أن الستائر الحمراء تغطي إبريق الشاي جزئياً من الهاتف أنها أخفته؟ هل يخفون ذلك عن عمد؟ إنها لا تستطيع أن تتأكد من ذلك.

أشار «دومينيك» إلى كرسي على الناحية الأخرى من المكتب لتجلس عليه. وبعد أن جلست عاد إلى مقعده. ولاحظت أنه يتوقع أن تسكب القهوة فسكبت له فنجاناً وتركته بدون سكر.

قال وهو يتناول القدح ويضعه أمامه:

«السكر؟ كنت بحاجة إلى القهوة».

لم تعرف «هيلين» بماذا ترد عليه. ولكنها حاولت أن تتحدث معه ببساطة:

«بول أخبرني أنك تؤلف كتاباً».

«حقاً؟»

جعلتها نظرة عينيه الصفراوين تتساءل إذا كانت أخطأت القول مرة أخرى:

«نعم. ولكنه لم يقل لي شيئاً أكثر. أعتقد أنه رفض مناقشة الموضوع معي».

«هل طلبت منه ذلك؟»

قالت «هيلين» وقد احمرت خجلاً:

«نعم... أثار ذلك اهتمامي».

أمال «دومينيك» رأسه وسألها:

«لماذا؟»

«أظن أن تأليف كتاب لا بد أن يكون تحدياً ضخماً».

فكر في كلامها ثم قال:

«إنه يتوقف على نوع الكتاب الذي يكتبه المرء. أظن أن بعض الكتب أصعب من سواها».

قطبت «هيلين» جبينها:

«أظن أن كتابة الرواية أسهل من الكتب غير الخيالية».

هز رأسه بالنفي:

«ليس بالضرورة. إذا كان الشخص يكتب عن قصة حقيقية فالأمر ينحصر في تقديم الحقائق بطريقة ممتعة. أما القصص الخيالية فتحتاج لحبكة متقنة بلا حسابات مسبقة».

«لم أفكر في الأمر بهذه الطريقة».

فقالت وهي ترتشف قهوتها بعد أن صنعتها وقد وجدتها لذيذة كالقهوة التي يعدها «بول»:

«وهل المكتب رواية؟»

هز رأسه بالنفي:

«ماذا؟ لا. كتابي واقعي تماماً».

قالت بحذر:

«هل هو عن سباق السيارات؟»

«هذه المرة نعم».

ورفعت حاجبيها.

«هل كتبت كتباً أخرى؟»

«كتاباً واحداً».

«وماذا كان موضوعه؟»

ابتسم بشيء من السخرية الساخرة:

«أنا متأكد أنك لست مهتمة حقيقة».

احمرّ وجهها.

«أوه.. ولكني مهتمة فعلاً».

تردد ثم قال وهو يدفع نفسه عن المكتب:

«كتبت تاريخ حياة والدي».

أثارها ذلك.

«والدك؟ كان ضابطاً في الأسطول، أليس كذلك؟»

بدأ صبره ينفد.

«أخبرك «بوك» بها أيضاً.. على ما أظن».

«نعم، ولكن فقط بطريق غير مباشرة. كان يقول لي إنه كان في الجيش. لم أعرف منه ذلك بدون قصده».

نظرت إليه باستعطاف.

«هل تغضب منه، أليس كذلك؟»

تنهد «دومينيك».

«شكلاً هكذا أخبرك أيضاً».

هزت كتفيها النحيلتين.

«ولا أي تقريباً. أخبرني عن والدك.. هل ما زال حياً؟»

تكلّم «دومينيك» بلا عاطفة.

«لا. مات منذ ست سنوات».

«في الوقت نفسه تقريباً عندما وقع الحادث؟»

قالت ذلك بلا تفكير ثم بعد أن رأت وجهه تمنت لو أنها لم تفعل. ولكن بلا شعور:

«نعم في الوقت نفسه تقريباً. هل أستطيع أن آخذ مزيداً من القهوة؟»

«بالطبع».

كانت «هيلين» سعيدة أنها تستطيع أن تفعل شيئاً. تكلمت بلا تفكير وبذلك قطعت الخيط الرفيع الذي بدأ يصل بينهما.

«تفضل».

تراجعت وهي تبدو مضطربة.

«إني آسفة! أقصد عن والدك».

لم يتكلم «دومينيك» بضع دقائق فظنت أنه لن يجيبها ولكنه قال بعد:

«كان يقود قوة عسكرية في الشرق الأقصى خلال الحرب، ومنح وسام فيكتوريا لأنه قاد هجوماً على مركز قيادة ياباني في الوقت الذي كان عدد رجاله أقل كثيراً من رجال العدو».

«هذا رائع! لا بد أنك شعرت بالفخر الشديد به».

قال موافقاً:

«شعرت أمي بذلك.. لم أكن بالغاً إلى هذا الحد أما «فرانسيس» فكان ما زال طفلاً».

«لم أقصد ذلك.. أي..»

شعرت «هيلين» بوجهها يحمر مرة أخرى ولحسن الحظ أن خجلها منعها من ترديد الأسئلة الأخرى التي كانت تود أن تطرحها. هل كان «فرانسيس» شقيقه الوحيد؟ الشقيق الذي قتل في ذلك الحادث المشؤوم؟ لو كانت قد أعجبت كثيراً بشخصية شقيقه الأكبر «دومينيك» أن «بول» الذي الحادث منعها بدلاً من في الواقع أصرّ على عدم الكلام في هذا الموضوع

وانتهى «دومينيك» من قدحه الثاني ووضعه جانباً وسحب كمية من الأوراق أمامه. كان هذا يعني أنه على «هيلين» أن تنصرف. شعرت بخيبة أمل بلا سبب معقول لكنها كانت مضطرة أن تقوم وتجمع ما أحضرته في الصينية قبل أن تذهب. ورفع «دومينيك» بصره وهي تجمع الأطباق فحدقت صبية عالياً وفهمت أنه شعر بعصبيتها التي لم تستطع إخفاءها. فقال بهدوء:

«سيحضر «بول» سريعاً لا حاجة بك للاهتمام بهذه الأشياء.

ـ أستطيع أن أتصرف».

التقطت «هيلين» الصينية وسارت نحو الباب لكنه تحرك بخفة وسرعة مدهشتين ووصل إلى الباب قبلها وتسارعت أنفاسه نتيجة الجهد القاسي. ونظرت «هيلين» إلى النبض الذي يتحرك عند قاعدة عنقه ثم لمحة من جلده الذي ظهر من بين أزرار قميصه المفتوح. وانتقلت نظراتها آلياً إلى يده التي تلمس نفضه وشعرت بنبض عنيف في أذنيها. للحظة سرى بينهما شعور ملموس بالانجذاب وكانت متأكدة أنها لو اقتربت قليلاً منه لشعرت على الفور بحرارته الأكيدة. كانت غريبة مسكرة وقد عرفت عيناها القلقتان رفعتهما إلى عينيه بلاشك من مشاعرها لكن تعبيره خدعها. كان قلق، بالرؤيا وبالرفض الشرس الشامخ التي كانت متأكدة أنها أثارتها فيه. فتح الباب بعنف وبلا مقدمات، ورغم أنها كانت متأكدة أنه كان سيقول شيئاً لكنه بقي صامتاً.

وفي المطبخ انتابتها رعشة كرد فعل لما حدث. اللحظات كان تصرفها غريباً وغير مفهوم لما أصابها. ما الذي يحدث لها منذ عرفت «دومينيك لاتول» الثلاثة أيام فقط ومع ذلك استطاع في هذه الفترة القصيرة أن يسيطر على عقلها ويفقدها الإدراك السليم لدرجة أنها أصبحت تتخيل علاقات بينهما لم يكن لها وجود إلا في خيالها. ضغطت براحتيها على خديها الملتهبين. يجب أن تهرب، يجب أن تهرب من هنا قبل أن يحدث شيء لا يمكن علاجه. أغمضت عينيها وهي تتذكر القدر الذي منع «دومينيك لاتول» من أن يتصرف بناء على استفزازها الغبي. كادت تقفز من جلدها عندما سمعت «بول» يقول باهتمام:

«ماذا بك؟ «هيلين»... هل تبكين؟»

فتحت عينيها

«لا.. لا أنا لا أبكي».

هزت رأسها لتدفع عنها ذلك الشعور القذر بالقدر الذي كانت تحس به طوال صباحها.

«من أين جئت؟»

ابتسم «بول».

«حضرت من عند دكتور. كنت أتلقى معطفي».

«وأين كنت؟»

نهض «بول».

«ذهبت إلى البريد».

حدقت «هيلين» فيه.

«وأين؟»

«في المركز..»

«أه.. بالطبع ولم يكن في استطاعتك أن تصحبني معك».

نظر إليها «بول» بتعسر ناك.

«لا».

رأى الصينية على المنضدة أمامها.

«ما هذا؟ هل كنت تصنعين القهوة يا آنسة؟»

هزت «هيلين» رأسها بالإيجاب.

«معذرتي «هيلين» منذ لحظات. يمكنك أن تدعوني كالذك إذا أردت إني أفضله على كلمة آنسة».

هز «بول» رأسه.

«كنت قلقاً عليك، وقد كانت زلة لسان».

قالت «هيلين» بضيق:

«وأنا أيضاً زل لساني. لحظات وتذكرت أني علمت أن والدك كان في الجيش،

«وماذا حدث؟»

«أظن أنه يعتقد أننا كنا نتناقش في أموره».

وتنهدت:

«ماذا سنفعل الآن؟»

«إذا كان السيد "لابول" قد شرب قهوته أظن أني أستطيع البدء في إعداد الغداء».

وضعت "هيلين" يديها في جيبي بنطلونها

«وماذا عني أنا؟ ماذا أستطيع أن أفعل؟»

«ماذا تريدين أن تفعلي؟»

قالت بسخرية:

«لا بد أنك تمزح».

«بغض النظر عن ذلك.

أنا لا أدري. ألا تزورون أحداً هنا؟ أقصد ألا يأتي إليكم أي زوار؟»

«أحياناً».

«من؟»

«أصدقاء السيد "لابول"».

«رجال أم نساء؟»

«الرجال».

استغربت "هيلين" هذا بشكل ما. كانت تظن أن أحداً يزوره. إن الاعتقاد السائد أنه مات أو أنه يعيش خارج البلاد جعلها تفترض أن أحداً لا يعلم بمكانه. ولكن بالطبع لا بد أن له أصدقاء - ومن الممكن أقرباء - يعلمون أنه يعيش هنا. وكانت تود لو استطاعت أن تسأل عن زائرين من النساء. ولكنها شعرت بشكل ما أن "بولت" لن يتكلم عن هذا الموضوع كما لن يتكلم عن غيره. ومع ذلك فإنها لم تستطع أن تمنع نفسها من أن تتصوره مع امرأة أخرى. وقد ضايقتها هذه الصورة.

قالت فجأة:

«سأذهب إلى غرفتي».

نظر "بولت" إليها باستغراب. ثم قال متمتماً وهو يجفف يديه:

«لست مضطرة للكلام».

ولكنها هزت رأسها وانصرفت.

في غرفتها ألقت بنفسها على السرير غير المرتب، ونظرت بعبوس إلى السقف. كانت تشعر بالاكتئاب الشديد. كل شيء يضايقها: هذا المنزل وظروفها وخاصة "دومينيك لابول". إنها لا تفهم ما الذي يجذبها إليه. إنه ليس وسيماً ولا جميل الشكل رغم أن بعض النساء قد يجدن في ملامحه الخشنة وعينيه الغائرتين ذات الجفون الثقيلة بعض الجاذبية. ولكن موقفه منها كان دائم السخرية. كما أنه كان يستطيع أن يكون شديد الوقاحة إذا شاء. فلماذا ينشغل تفكيرها إلى هذه الدرجة؟ لماذا لا تفكر في واقعها وبما قد يكون لهذه العلاقة من تأثير عليها؟ بدلاً من أن تنغمس في هذه العاطفة غير المقبولة. إنه تصرف غير طبيعي وغير معقول وهي تستحق هذا الشعور بالاكتئاب.

حاولت من جديد أن تسترجع صورة "مايك فراملي" إلى ذهنها. إنه الرجل الذي يريدها والدها أن تتزوجه. إنه شاب غني وجميل. كل صديقاتها يحسدنها عليه ومع ذلك فهو لا يحركها.

أخذت تشد خصلة من شعرها الأسود الناعم وهي تسترجع الشعور الذي شعرت به عندما قبلها المرة الأولى. وقد قبلها بعد ذلك عدة مرات وهي تظن أنها انطبعت على قلبه ولكنها لم تستمتع بها أبداً. فكرت بشيء من الشك أن هناك شيئاً غير طبيعي فيها. لماذا لا تنجذب؟ لماذا هذا الشعور بالتوتر كلما حاول أن يلمسها؟ ولهذا كانت فكرة الزواج به تملؤها بالنفور.

ظنت أن العيب فيها هي. وأن هناك شيئاً ينقصها ولكنها الآن ليست متأكدة من ذلك. تذكرت الطريقة التي استجابت بها لقرب "دومينيك لابول" منها فشعرت بسخونة ترطب جسمها ولاحظت أنها لم تشعر بالاشمئزاز بداخلها من لمسة يده.

شعرت بالحيرة الشديدة من ردود فعلها المختلفة. هل فقدت التحكم في مشاعرها؟ هل هو ما يعنيه الناس عندما يتكلمون عن الانجذاب الجسماني؟ هل

في مشكلتها هل أصبحت مفتونة بهذا الرجل الغامض الشديد؟ هذا لا يبدو ممكناً.
ولكن هل هناك تفسير آخر؟

امتلكت جانيت.. أصبحت خيالية أكثر من اللازم. لا بد أن السبب بقاؤها وحيدة أغلب الوقت تفكر وتتخيل الأشياء. قامت من السرير واتجهت إلى الحمام إنها لا تشعر بالراحة. قررت أن تأخذ حماماً يشغلها قليلاً ويساعد على تمضية الوقت حتى المساء عندما ستستعمل التليفون كما قررت.

خرجت بعد الظهر لتلتقي مع "بولت".

لقد تناول "دومينيك لايول" غداءه في مكتبه وتناولت هي غداءها مع الخادم في المطبخ. وبعد أن انتهى من غسل الصحون اقترح "بولت" أن يخرجها قليلاً. شعرت "هيلين" أنه يحاول أن يعوضها عن عدم أخذها معه في الصباح إلى مكتب البريد. لم تستطع إلا أن تتساءل عن بعد مكتب البريد عن المنزل. إذا كان "بولت" قد استطاع أن يذهب ويعود في حوالي ساعة إذن فهو ليس على مسافة كبيرة.

عندما خرجت رأت آثار عجلات سيارة وقد سوّت الثلج الكثيف إلى الدرب التي سلكته مع "دومينيك" عندما أحضرها في المرة الأولى. وشعرت أنه لا بد أن يكون لديهم عربة من نوع ما.

- هل لديكم سيارة؟

سألت وهي تقف داخل حظيرة الأبقار تراقب "بولت" وهو ينظف الروث من الحظائر. إذا كان لديهم سيارة - وربما أكثر - فقد تستطيع أن تهرب بها. لكنها لا تستطيع أن تقودها وهي داخل السيارة.

استند "بولت" على الجاروف ونظر إليها قائلاً بلطف:

- لدينا عربة جيب.

- آه.. صحيح؟

حاولت "هيلين" إخفاء سرورها الشديد:

- ولكنني لم أرها هنا.

علق "بولت" وهو يعود لعمله:

- في الهنغار لأنها كانت في الكاراج. هل سبق لك أن قدت سيارة من هذا النوع؟

ابتسمت "هيلين" ضحكة مرحة:

- بالطبع لا.. لا أعرف كيف أبدأ.

وربما على "بولت" أن يعلمها.

قال وهو يعتدل ليريح ظهره:

- إنها ليست دائماً سهلة إذا لم تكوني معتادة عليها.

تركت "هيلين" الموضوع. شعرت أن "بولت" يحاول أن يقول لها شيئاً ما ولكنها لم ترد أن تستمع.

وبعد ذلك أخذها للسير مسافة من التل خلف المنزل وكان الجو كما قال من قبل أبرد كثيراً لكن الحركة جعلت الدم يجري في عروقها وعادت إلى المنزل وهي تشعر أنها أكثر مرحاً ولو أنها غير متأكدة إذا كان هذا الخروج أم نتيجة معرفتها بأن تلك العربة تنتظرها في ذلك الكاراج.

وارتدت ثوباً طويلاً آخر ذلك المساء للعشاء. كان أحد أثوابها القطنية بلون الياقوت الأزرق برقبة منخفضة تظهر تماماً جلدها الأبيض وبأكمام طويلة تنتهي بطرف مدبب عند الرسغين. ورفعت شعرها على الجانبين وشبكته بشبك من الماس عند قمة رأسها وتركت خصلتين مجعدتين قرب أذنيها. وكانت عادة لا تضع إلا قليلاً من الماكياج وهذه الليلة أظهرت لون عينيها بقليل من الظل الأخضر وطلت شفتيها بأحمر شفاه برتقالي.

كان "دومينيك لايول" في غرفة الجلوس عندما دخلت وكان يسكب لنفسه كأساً من الشراب بجانبه. نظر إليها بتأمل دون أن يبدي أي إعجاب كانت تنتظره. كما أنه لم يقم لاستقبالها. تريثت قليلاً قرب الباب وهي تنظر إلى الكنبة أمام المدفأة عند قدميه.

ضغط على الكنبة بقدمه حتى لا تتحرك ثم قال:

- اجلسي. أرجو أن تعذريني إذا لم أقف لأني هذا المساء أجد من الأسهل أن أبقى جالساً.

شبكت "هيلين" يديها وتقدمت. لقد لو أنها لم تهتم إلى هذه الدرجة بمظهرها

شعرت أنها متألقة أكثر من اللازم بما يرافق ملابسه السوداء التي ارتداها اليوم السابق ويبدو كشيطان [illegible]

عندما جلست سكب لها قليلاً من الشراب وأضاف بعض الصودا وقدمه لها. أخذته [illegible] لأنه كان يتوقع ذلك ولكنها لم تكن تحب هذا الشراب كثيراً.

قال وهو يتفحصها بوقاحة بعينيه [illegible]:

- هل هذا من أجل [illegible] أم من أجلي؟

رفضت [illegible] أن تتأثر بطريقته وردت ببرود:

- أنا معتادة على ارتداء ملابس خاصة للعشاء، والتي يقول إن هذا يرفع الروح المعنوية.

هز دومينيك رأسه موافقاً.

- هل يقول ذلك؟ وكيف حال روحك المعنوية هذا المساء؟

- عالية، شكراً.

- مثلي تماماً.

- [illegible] على السؤال [illegible] أريد أن أعرف كيف تستطيعين [illegible] معه.

[illegible] بغضب:

- يجب أن تعرف أني لا أستمتع به على الإطلاق.

- بالعكس [illegible] أشعر أنك كنت تتمتعين [illegible] وتستمتعين [illegible] القلق. أليس هذا هو ما أتيت للبيال من أجله؟

قالت بعصبية [illegible]:

- أتيت إلى البيال لأكون مستقلة وليس لأستغل حيوية بحيوية أخرى.

- [illegible] بهذا السرور.

وبدأ [illegible] السخرية من صوته. وشعرت بأطرافها السفلى تتخاذل. نظرت إليه وهي ترتعش محاولة أن تقرأ التعبير في عينيه اللتين [illegible] رموشه الكثيفة.

كان فمه [illegible] بالرغبة وهو يرد نظرتها فشعرت بأن كل عضلاتها [illegible] يذوب في

قلب أطرافها التي لم تشعر بها من قبل. وكان الدم يتدفق بجنون في عروقها وأصبح تنفسها سريعاً وسطحياً. كانت تريد أن تذهب إليه وتضع ذراعيها حوله وتقول له إذا كان يريدها فهي لن تذهب أبداً. ولكن هذا جنون مطبق.

افترقت شفتاها ولكن قبل أن تنطق تأوه فجأة ثم أجفل من الألم [illegible]

انتقل عبر الغرفة ولكن [illegible] انتقل إليها كأنها تشعر به. على الفور قامت ووقفت وراءه. كان يقف مستنداً بقبضته على طرف المكتب وظهره إليها وكان [illegible] من شدة تلك الضربة أنها وقفت وراءه لا تدري ماذا تفعل وقالت:

- هل... هل أنت بخير؟

قال من بين أسنانه بدون أن يستدير:

- نعم... أنا على خير ما يرام.

- [illegible]

- [illegible] على أستطيع أن أشعر [illegible]

استدار [illegible] واستند على المكتب ووجهه يعكس الآثار نفسه التي أصبحت تعرفها. ثم قال بخشونة وقد شحب وجهه أكثر من العادة:

- أنا [illegible] هذا الاهتمام بي وبخاصة بعد ما قلته، ولكن لا يا آنسة [illegible] لا يوجد شيء تستطيعين عمله... أشكرك.

كانت ستحتج على ما قاله ولكنها شعرت بأنه مصرّ على موقفه الجامد ولا فائدة من الكلام. وكان وصول [illegible] في هذه اللحظة حاملاً العشاء منهياً الحديث بينهما.

لاحظ الخادم [illegible] بجانب المكتب [illegible] وأسرع [illegible] على كتفيه [illegible] ووضع الصينية على الطاولة المنخفضة بجانب المدفأة.

[illegible] دومينيك وهو يخرج لتجلس وجلست [illegible] التي [illegible] لكنها نظرت باستغراب عندما قال:

- تعال [illegible] إلينا في العشاء يا [illegible] أنا متأكد أن الآنسة [illegible] تجد

صحبتك أكثر متعة من صحبتي.

ابتسم "بولت" ولكن يبدو أن شيئاً ما لم يعجبه وبدت الغصة فابتسم وقبل الدعوة وهو يقول:

- بالتأكيد يا سيدي، أنا أحب ذلك.

- حسناً فليكن غداً إذن الثالثة.

أخذ "دومينيك" يتراجع على كرسيه وأسند ساقه المصابة على السياج الخشبي الذي يحيط بالشرفة. تساءلت "هيلين" وهي تنظر إليه عن السبب الذي يجعل كل حركاته أقل إثارة وسحراً له. ولكن عندما رأت نظرتها إليه لم تستطع أن تفهم تعبيره.

وبالطبع لم يكن العشاء ممتعاً على الاطلاق. شعرت "هيلين" بندم أن دعوة "دومينيك" لـ"بولت" كان سببها المشهد الذي حدث بينهما قبل وصول الخادم، ووجدت نفسها في وضع حرج وهي تشعر أنه يجب لها من عند أن تصرفها فيه إحراج له أنه هو!

شعرت "هيلين" بالاهانة والضيق. ما الذي كان يعنيها عندما ينظر إليها بطريقة معينة تعني كل هذا له وتصبح رهن إشارته؟ هل كان يفعل ذلك من عند، أم أنه انجذاب لا إرادي؟ أم أن طبيعته المتمردة كانت تجد لذة في مضايقتها؟ لم تأكل إلا قليلاً من الدجاج المحمر الذي أعده "بولت" ولكن لحسن الحظ أن الرجلين كانت لديهما مواضيع كثيرة للحديث مما جعلهما لا يلاحظان على عدم شهيتها للطعام.

عندما انتهت الوجبة، وكان الرجلان يدخنان، نظر "دومينيك" إلى "هيلين" وقال بتعمد... كما اعتقدت:

- أظن أني سأحتفل ببعض الوقت هذا المساء يا "بولت"... لست متعباً فقد استرحت بعد الظهر عندما كنا في الخارج وسأسهر بعض الوقت.

قال "بولت" بحسم:

- هذا حسن طالما لا تجهد نفسك.

وقال "دومينيك" وهو ينحني بكسل وينظر إلى وجه "هيلين" الذي بدت

عليه خيبة الأمل فجأة:

- وإذا كنا سنترك هذا البلد قريباً يجب أن أحاول الانتهاء من كتابي.

نظرت "هيلين" إلى يديها المطويتين، وهي تنسى مناكفة الآن أنه يعلم أنها رأت الطبيبين في المكتب، وكانت هذه طريقته في إخبارها ألا تأتي وتساعده هذه الليلة. شعرت بالاختناق في حلقها وغرزت أظافرها في راحتيها. كيف تستطيع في أي وقت أن تشعر بأي شيء غير الكراهية لهذا الشخص الذي يستغلها دائماً لإرضاء مزاجه السادي!

٦ ـ القصة كاملة

في الأيام القليلة التي تلت ذلك لم تسنح الفرصة لـ «جيليان» أن تبحث عن أية وسيلة للهرب. استيقظت بعد طول الغشاء بصداع وحرقة في حلقها ورشح في أنفها وعندما أحضر لها «بول» الافطار أصرّ على أخذ حرارتها وعدم مغادرتها الفراش.

وعندما اعترضت على ذلك لئلا تسبب له أعباء إضافية، قال موبخاً:

ـ هل تريدين أن تصابي بالتهاب رئوي؟ أظن أنك أصبت ببرد منذ ليلة وصولك وأنك منهكة تماماً. ابقي حيث أنت وسأحضر لك زجاجات ماء ساخن، فإنك لا تستطيعين النزول وأنت تعانين ذلك.

وكانت تعلم ذلك فعلاً لأنها كانت تشعر بتعب شديد وقد أراحها أن تترك نفسها في عناية «بول» وهي متأكدة أن ذلك لن يضايقه، ولم ترد أن تفكر فيما قد يكون رد فعل «موسييه لابول» كما أنها لم تفكر فيه طوال اليوم وهي مستلقية في الفراش تعاني من الصداع.

وفي الصباح التالي شعرت ببعض التحسن ولكن ليس لدرجة تسمح لها بترك الفراش. وأحضر «بول» لها كل وجباتها في غرفتها بدون إشعارها بأي حرج. كما أحضر لها بعض الكتب. وأمضت «جيليان» يومها في القراءة والنوم ومحاولة الاسترخاء قراءة.

وفي مرة أو مرتين، سمعت وقع أقدام على السلم، فتوترت متوقعة أن يأتي «موسييه لابول» ليسأل عنها لكنه لم يفعل، ولم يأت أحد إلى غرفتها سوى «بول». وفي اليوم الثالث كانت قد شفيت تماماً وعندما أحضر لها «بول»

إفطارها وأكد أنها يجب أن تبقى في السرير رفضت ضاحكة وهي ترجوه أن يسمح لها بالنزول.

ـ لقد تحسنت كثيراً ـ حقاً وأريد أن أشكرك على عنايتك بي وإحضارك الأدوية وزجاجات الماء الساخن. أنا لا أعرف كيف أشكرك.

هز «بول» رأسه قائلاً:

ـ كنت سعيداً بذلك يا آنسة.

ـ جيليان.

فضحك وقال:

ـ حسناً، يا جيليان ـ أرى أنك تحسنت ولكني أقترح ألا تتركي فراشك حتى بعد الظهر. اعطي نفسك راحة أكبر فإنك لم تبقي في الفراش إلا يومين.

فقالت وهي تنظر إلى الصينية:

ـ سأفكر في الأمر.. ما هذا على قراب وقلم.. سأستمتع به.

وبعد انصراف «بول» تناولت «جيليان» إفطارها ثم نعمت بدفء الشمس الدافئة وكان يوماً جميلاً ـ كانت هناك بعض الغيوم لكن على الأقل لم يسقط الثلج منذ مرضها. ونظرت إلى غرفتها ثم قررت أن تغتسل وتنظف أسنانها.

ضاقت بوجودها في الغرفة ـ وهي الآن تحسنت وتريد أن تخرج وتتحرك.

ورفضت أن تفكر في «موسييه لابول». إنه لم يحاول حتى أن يحضر ويسأل عنها ولم تستطع إلا أن تشعر بالضيق من ذلك.

وارتدت بنطلون جينز ضيقاً وقميصاً بيج وأخذت صينيتها ونزلت إلى الطابق الأرضي. ولم يكن «بول» في المطبخ فوضعت الصينية ونظرت حولها فتعجبت أن هذا المكان أصبح مألوفاً لديها وبدت فيها شعوراً بالترابط لم تشعر به أبداً في المنزل حيث يعيش والدها مع «إيزابيل».

وأزاحت شعرها وراء أذنيها، ونظرت من نافذة المطبخ وهي تتساءل أين يمكن أن يكون «بول». هل ذهب إلى المتاجر مرة ثانية أم أنه في الخارج يقطع الشيرانات. كان باب المخزن مفتوحاً على مصراعيه، وصدر صوت من داخله جعلها تستدير باستغراب.

«بولت! بولت... هل هذا أنت؟»

نهضت إلى باب المخزن ونظرت فلاحظت أن هناك باباً آخر في نهاية المخزن من الناحية الأخرى، وأنه مفتوح أيضاً. فقطبت جبينها ثم سارت ببطء حتى الباب الآخر ونظرت منه فرأت سلالم تنزل إلى أسفل.

وشعرت بقشعريرة من الإثارة. إنه كالقصة التي كانت تقرأها أمس - باب سري يؤدي إلى سلالم قذرة ومعتمة. بدأت تنزل السلالم. إنها متأكدة أن «بولت» موجود تحت، ومن الأغلب أن هذه السلالم تؤدي إلى مخازن البيت حيث يحتفظون بالمؤن.

وفي نهاية السلم بدا أن ما خمنته كان صحيحاً. كانت تقف في قبو مضاء بمصباح واحد معلق. ولكن «بولت» لم يكن موجوداً وكان هناك باب آخر مفتوح. شعرت بأنها تتطفل وهي تسير نحو الباب الداخلي وتفتحه ببطء. كتمت شهقة كادت تفلت منها عندما رأت ما وراءه. لم يكن هذا قبواً عادياً وإنما قاعة رياضية مجهزة بأحسن الأجهزة بأحصنة خشبية للقفز وقضبان حائط وحلقات معلقة في السقف وحبال وكراسي ملاكمة وآلات التمرينات. وسارت إلى منتصف القاعة تنظر حولها بدهشة. فهمت لماذا لا يوجد أي تضخم أو زيادة في الوزن لدى «دومينيك» رغم عدم الحركة المفروض عليه.

وفي نهاية القاعة كان هناك باب يفتح على غرفة الملابس مبطنة بالخشب وملحق بها حمام. الغرفة هنا ساخنة والجو رطب ووجدت «هيلين» نفسها تتصبب عرقاً. كانت السخونة تأتي من خلف باب آخر وبدون التفكير أدارت المقبض ونظرت إلى الداخل.

ملأها شعور بالإثارة الشديدة. كانت الغرفة الداخلية عبارة عن حمام «سونا» مضاءة بنور برتقالي ضعيف، وجوها شديد الحرارة. وكان يتوسطها مصطبة ينام عليها رجل على وجهه. وفي اللحظة نفسها التي أدركت أنه «دومينيك» الذي قال بصبر نافد:

«ادخل السونا يا «بولت». أسرع، إن لدي عملاً أريد إنجازه».

وجمدت «هيلين». أدهشها أنه سمع الباب يفتح وافترض أن «بولت» هو

الذي دخل. فإذا استدار الآن ورآها فماذا ستفعل؟ اشتعل خداها لم ترَ رجلاً عارياً من قبل.

وبينما هي مترددة تفكر في إغلاق الباب والهروب، تكلم مرة أخرى، فقال وهو يشير إلى نقطة في ظهره:

«هنا يا بولت».

شعرت «هيلين» بمعدتها تنقبض بعصبية. إذا لم تتحرك بسرعة سيستدير ويراها. يجب أن تذهب الآن بينما الفرصة مواتية ولا تجازف باكتشافها هنا. ولكن شيئاً أقوى من رغبتها في الهروب كان يدفعها للبقاء. كانت تعلم أنها تتصرف بغباء، وأن هذا الموقف سيعرضها لمزيد من الإذلال. لكنها أغلقت الباب ودخلت الغرفة. خيل إليها أن «بولت» معالج، وهي تعرف عن التدليك ما فيه الكفاية لتحقق هدفه.

كانت يداها ترتعشان، وعندما وضعتهما على ظهره، وبدأت تدلك العضلات التي تشد العمود الفقري، وبينما هي تعمل، انتصب جسمه لحظة وظنت أنه سيستدير ويواجهها، ولكنه استرخى مرة أخرى، فاستعادت ثقتها بنفسها، وأخذت تدلكه بقوة أكبر، وتنشط الدورة الدموية. كانت الحرارة في الغرفة تجعل جسمه رطباً ولأنها كانت مرتدية كامل ملابسها شعرت بالحرارة الشديدة. أسرع تنفسها وبدأت ترتفع تدريجياً وشعرت بأنها لن تستطيع أن تكمل. وفي هذه اللحظة استدار على ظهره وسحب منشفة غطى بها نفسه.

فتحت «هيلين» فمها في انزعاج ولكن عينيه كانتا تعبران فقط عن إعجابه. قال بلا أثر للمرح:

«ساحرتي».

ولكن «هيلين» كانت خجلة لأنها استمتعت بعملية التدليك، وقالت:

«كيف علمت أنه أنا؟»

ابتسم «دومينيك» ابتسامة كسولة أظهرت أسنانه البيضاء المنتظمة:

«لأن يدي «بولت» أثقل كثيراً. لماذا فعلت ذلك؟»

نظرت «هيلين» إلى يديها المتشابكتين وقالت بأمانة:

- لأني أردته.

ضحكت عينا «دومينيك» وظل يحدق وهو يجلس على المصطبة بحركة واحدة مرنة

- ما تقولينه مثير جداً.

- هل هو كذلك؟

كانت سعيدة أن الضوء البرتقالي يخفي احمرار وجهها.

- وأنت تعلمين ذلك.

كان العرق يتصبب من ذراعيه وصدره وبدا شعره أغمق بفعل الرطوبة ولكن «هيلين» لم تغضب ونظر إليها ولم تكن في نظرته تلك السخرية التي اعتادتها بل بالعكس كانت فيها رقة مقلقة. شعرت بحلقها يجف. مد يده وجذبها نحوه لم تتحرك رغم ذلك ووقفت متسمرة في مكانها. قال بصوت مبحوح

- تعالي يا «هيلين».

سحبها نحوه وأخذ يقبل وجهها. وكانت في هذا الوضع الشخصي وركبتيها ترتجفان وهي تنتظر ذلك الشعور بالنفور الذي كانت تشعر به كلما لمسها «مايك». لكن هذا الشعور لم يأت بل بالعكس. أخيراً دفعها بعيداً عنه وقام وسار ببطء وهو يعرج ويضع كفه على ساقه السليمة قائلاً:

- هذا جنون.

راقبته «هيلين» بعجز ثم تمتمت:

- «دومينيك»... «دومينيك» ماذا بك؟

ونظر إليها بنفاد صبر من خلف الضوء ثم قال بعنف:

- بحق السماء يا «هيلين»... لا يمكن أن تكوني بهذه السذاجة! إنك تعلمين ماذا بي. هل لديك فكرة عما تفعلينه بي؟

أجابت:

- أعلم ما تفعله أنت بي.

استدار ونظر إليها بضيق ثم قال بعنف:

- ما كان يجب أن تنزلي إلى هنا. ما كان يجب أن أتركك...

توقف فجأة ثم قال:

- أظن أنه من المستحسن أن تذهبي.

حدقت فيه «هيلين» غير مصدقة. لم تستطع أن تقبل صرفه لها بهذه الطريقة القاطعة. كانت تشعر بحاجة لا تستطيع فهمها تماماً، ولكنها تعرف أن «دومينيك» هو محورها.

بدأت تقول:

- «دومينيك»... أرجوك لا تغضب.

- أغضب! أغضب! كيف تتوقعين أن أغضب؟

ونظر إلى تلك الصاب ومرت بوجهه نوبة من الألم.

- «هيلين» اخرجي من هنا الآن قبل أن أغير رأيي.

ولم تتحرك «هيلين». انفتح الباب ودخل «بول» إلى الغرفة كما دخل ذلك المساء منذ ثلاثة أيام ولكن رد فعله هذه المرة كان أكثر حدة صباح

- «هيلين»... إنك مبتلة تماماً.

جاء إلى جانبها ووضع يده على جبهتها

- أنت ساخنة جداً. ماذا بحق السماء كنت تفعلين؟

انتقلت نظرته إلى «دومينيك» فتغير تعبير وجهه.

- هل تريدين أن توضحي ما الأمر؟

أشاحت «هيلين» بنظراتها بعيداً عن عيني «دومينيك».

- أنا بخير... يا «بول». حقاً أنا ساخنة لأن الغرفة هنا ساخنة. هذا كل ما في الأمر وأنا مبتلة لأني عرقت.

قال بخشونة:

- أقترح أن تدخلي الحمام وتستعملي الدوش. وإذا أخبرتني أين ملابسك سأحضر لك غيرها.

- ليس هذا ضرورياً حقاً.

أجاب «بول» وهو يضع زجاجة الزيت التي كان يحملها

- بالعكس... أظن أنه ضروري جداً. أظن أنك لن تتخلصين من الأنظار بعد

«دقائق أخرى ـ أليس كذلك يا سيدي؟»

هز «دومينيك» رأسه واستدار بعيداً. أخذ «بول» ذراع «هيلين» وجرها بإصرار خارج «السونا» إلى غرفة الملابس، وقال وهو يشير إلى الدوش ويطل «السونا» بصوت يعكس مشاعره الحقيقية:

«هذا هو الدوش ـ والآن أين ملابسك؟»

احمرت «هيلين» خجلاً ولكنها رأت أنه لا مفر من الموافقة.

«ستجد ملابسي الداخلية في الدرج وبنطلوني الجينز والقبعة التي كنت ألبسها منذ عدة أيام معلقتين في الخزانة.»

رد «بول» قائلاً:

«حسناً والآن خذي الدوش وسأحضر لك ملابسك قبل أن تنتهي.»

كان الدوش الساخن منعشاً ولكن أفكارها كانت ما زالت مع «دومينيك لاتول». عاشت مرة أخرى الدقائق الأخيرة بكل تفصيلاتها وهي تشعر بالإثارة.

أغمضت عينيها وشعرت مرة أخرى باحتياجها إليه، وتساءلت كيف استطاعت أن تتصور أنها بلا عاطفة؟ إن أحداً من قبله لم يثرها بهذه الطريقة لكنه استطاع أن يفعل وتركها وهي أشد اشتياقاً له من أي قبل.

واشتعل خداها احمراراً. كيف تتمنى الحب مع رجل تكرهه؟ لابد أنها مجنونة كما قال.

فأكدت لنفسها ربما جسمها يهدأ ـ لقد سمحت له أن يوقعها في شباكه وهي غير منتبهة. ولكن هل هذا صحيح؟ ألم تكن تعرف تماماً أنه شهواني؟ ألم تستجب هي بلمسة يديها له؟

كان هناك طرق على الباب، فقالت وهي ترتجف:

«من هناك؟»

«أنا «بول». ملابسك خارج الباب وسأذهب لأعطي السيد «لاتول» علاجه. هل يمكنك أن تتصرفي بمفردك؟»

أجابت بالإيجاب وعندما خرجت من قاعة الرياضة لتلبس ملابسها شعرت

بالانتعاش. وتساءلت ماذا يمكن أن تفعل بملابسها القذرة فليس لديها مسحوق الغسيل، ولكن لابد أن «بول» لديه ويمكن أن تقوم بغسلها بنفسها. وقررت أن تتركها في المطبخ حتى وقت الغداء لكن عندما وصلت إلى الطابق الأرضي خطرت لها فكرة مفاجئة. «دومينيك» في غرفة السونا و«بول» يعالجه الآن ـ وهذا يعني أن المكتب فارغ.

تركت ملابسها في ركن المطبخ وأسرعت إلى الصالة وقلبها يدق بعنف. ولحسن الحظ لم تر أحداً أيضاً رغم أنها فتحت باب المكتب بحذر شديد خوفاً منه. ولكن الغرفة كانت خالية كما ظنت. وأغلقت الباب وراءها بهدوء وأسرعت نحو النافذة حيث رأت التليفون في المرة الأولى. وسحبت الستارة جانباً. كان التليفون مازال موجوداً ويدها ترتعش وهي تمد يدها إليه. بمن ستتصل؟ والدها في لندن. أم بالشرطة المحلية؟ لا ليس الشرطة. قررت ذلك بسرعة. إنها لا تريد أن تدخل الشرطة في الموضوع.

ووضعت السماعة على أذنها ثم رأت مالم تكن قد رأته من قبل. كان السلك الذي يخرج من قاعدة التليفون يتدلى منفصلاً بعيداً عن الحائط. إذ كان قد تم قطعه.

فأعادت السماعة كأنها تحرق يدها ووقفت مشدوهة. شعرت بشعور هائل بالخيانة. في أي حال أخبرها «دومينيك» بعدم وجود تليفون لديه.

كانت سعيدة أن أحداً لم يرها وهي تتصرف بهذه الحماقة. وذهبت ببطء إلى غرفتها إلى أن انتهت قصة التليفون. وليس أمامها إلا سيارة الجيب وهي لا تعرف حتى مكانها.

ولم تستطع النزول مرة أخرى قبل الغداء. وكانت تقول لنفسها إن السبب أنها مرهقة ومكتئبة، ولكن الحقيقة أنها لم تكن تستطيع أن تواجه «دومينيك» مرة أخرى حالياً.

وعندما نزلت أخيراً وجدت «بول» في المطبخ يحضر المائدة لاثنين ونظر إليها فرح وهو يقول:

«ها قد أتيت. بدأت أظن أني سأتناول طعامي بمفردي. هل عدت إلى سريرك؟»

هزت «هيلين» رأسها قائلة:

«لا. كنت أستريح».

«هل فكرة حسنة».

واستمر «بولت» في عمله وأخذت «هيلين» تعبث بعصبية بالسكاكين الموضوعة على المنضدة.

«هل... هل السيد «لايول» يتناول غداءه؟»

قال «بولت» وهو يصفي الطماطم:

«إنه سيتناول الغداء في مكتبه».

«لكن...»

شعرت «هيلين» بخيبة أمل عندما علمت أنها لن تراه رغم كل شيء.

ونظر إليها «بولت» وقال:

«هيلين... هيلين، لا تورطي نفسك هنا. إني أقول لك ذلك لمصلحتك».

وركزت «هيلين» بصرها على المنضدة الخشبية وقالت:

«أنا لا أعرف ماذا تقصد».

«أنت تعلمين جيداً. أنا أعلم أنه ليس من شأني، ويمكنك أن تقولي لي ذلك، ولكني لست أعمى وأستطيع أن أعرف جيداً ماذا حدث هذا الصباح».

وجلست «هيلين» فجأة وهي تقول:

«هل تستطيع إذن... لماذا؟ هل حدث مثل هذا هنا من قبل؟»

قال بعبوس:

«لا لم يحدث مثل هذا من قبل، ولكني أعرف «دومينيك» جيداً الآن وآمل أن تكوني على قدر من الحكمة...»

ثم توقف عن الكلام وهو يجد صعوبة في التعبير عما يريد قوله، وردت «هيلين» بصراحة:

«إنه لم يغضبني إذا كان هذا ما تحاول أن تقوله».

واحمر وجه «بولت» قليلاً:

«أنا فقط لا أريد لك أن تتألمي».

«إذن تذكري هذا الكلام. كيف سأتألم؟»

«بالتورط مع السيد «لايول»».

«ألا يعني هذا الكلام عدم إخلاص السيد «لايول»؟»

فتنهد «بولت» وجلس في الكرسي المقابل لها:

«هيلين، دعيني أخبرك بشيء لا يعرفه إلا القليل. «دومينيك» يحمل نفسه مسؤولية الحادث... الحادث الذي قتل فيه شقيقه».

فحملقت «هيلين» بأسى:

«لماذا؟»

فتردد «بولت» وقال:

«لا أستطيع أن أخبرك... إلى جانب أنها قصة طويلة».

«ولكنك يجب أن تخبرني... أرجوك يا «بولت» أريد أن أعرف».

وهز «بولت» رأسه بشدة:

«إن هذا لن يعجب السيد «لايول»».

«هل يجب أن يعلم؟»

«ربما سيحدث عندما تتعبين من هذا. عندما تعودين إلى عائلتك. من أيضاً سيعلم الحقيقة؟»

«لا أحد أقسم لك».

هز «بولت» رأسه:

«لا أستطيع أن أصدق ذلك».

ونظرت إليه «هيلين» قائلة:

«أنا لا أكذب».

«أنا لا أقول إنك تكذبين، ولكن قد تقولين شيئاً بدون قصد في وقت ما».

«آه يا «بولت»».

ونظر إلى وجهها المكتئب لحظات ثم قال بتجهم:

«هذه الأيام أليس كذلك؟ لقد تورطت فعلاً».

فقالت وأصابعها على فمها

«لا أعلم»

ثم تركت كتفيها بحدة.

«أنا لا أريد ذلك. ولا أكف عن الترديد لنفسي أنني يجب أن أكرهه لأنه يخفي هذا رغمًا عني. ولكني لا أكرهه عندما أفكر أني تركت «نيل» مرعبًا من الرجال»

قطب «بولت» جبينه قائلاً:

«هل أنت متأكدة أنك لا تخلطين بين العطف وبين أمره»

ضحكت «هيلين» بلا مرح

«لا أعلم.. فقط أعرف أنه عندما يقترب مني...»

وتوقفت فجأة ثم سألت:

«هل عرجه شيء مستديم؟»

«نعم. إن جزءًا من عظام الفخذ تحطم في الحادث وكان على الجراحين إزالة الأجزاء المحطمة.»

«آه.. فهمت»

«في ذلك الوقت وبعدما شفي من الاصابات الأولى كانوا يريدون إجراء جراحة أخرى ووضع عظمة صناعية مكان العظمة التي تحطمت. ولكن السيد «لابول» لم يسمح لهم بذلك.»

«لماذا؟»

«لا أعلم.. حاول الجميع إقناعه ولكنه رفض.. كان يبدو وكأنه يريد أن يتذكر الحادث دائمًا. وبالطبع فإن ضعف رجله عندما يقف طويلاً كما يؤلمه صوت الفخذ.. لذلك فالعكاز يساعده.»

«أفهم»

واستطردت «هيلين» وهي تمسك بالعكاز:

«أعرف بعض الشيء عن هذه الأمور. كانت والدتي تعاني من نوبات صداع عنيف وكانت تطلب مني أن أدلك جانبي رأسها وظهر عنقها.»

ثم توقفت:

«أريد أن تخبرني يا «بولت» لماذا يلوم «دومينيك» نفسه بخصوص الحادث؟»

فقام «بولت» واقفًا:

«إنه يعتقد أن أخاه حاول قتل نفسه لأنه اكتشف أن زوجته تحب «دومينيك»»

«ماذا؟»

«لقد التحق «فرانسيس» أخو والده والتحق بالجيش، وعندما كان في فرصة قابل «كريستينا» وتزوجها بدون أن يخبر أحدًا. ثم أحضر زوجته معه إلى البيت. كانت صغيرة وجميلة وبعد أن قابلت «دومينيك».. يحسن عدم ذكر هذا الجزء. ويكفي أن نقول أنها أقنعت «فرانسيس» بترك الجيش ودخول سباق السيارات كالفتيات. لكن «فرانسيس» لم يكن يصلح لأن يكون سائقًا. لم يكن هذا يهمها ولكنه كان مغرمًا بها لدرجة أنه كان مستعدًا أن يعمل أي شيء. واشترك في بعض السباقات ونجح نجاحًا متوسطًا لكن هذا لم يكفها وكان «دومينيك» يكسب في السباق وهي تحب الرابحين.»

شعرت «هيلين» بقلبها يهبط.

«و... ودومينيك؟»

ابتسم «بولت» قليلاً:

«لا.. إن «دومينيك» لم يكن معجبًا بها إلى جانب أنها كانت زوجة أخيه. وهذا ما حدث بعد ذلك.»

تنهد «بولت» تنهيدة كبيرة.

«كانت الليلة قبل سباق «نوربورغرنج» وكنا جميعًا قد ذهبنا إلى «ألمانيا» منذ بضعة أيام وأقمنا في فندق قرب حلبة السباق. وتلك الليلة تشاجر «فرانسيس» و«كريستينا» وكانا دائمًا يتشاجران. كانت تريد أن يأخذها إلى النزهة بينما هو يريد أن يستريح لأن سباق السيارات رياضة شاقة جدًا ويحتاج لياقة بدنية كاملة. لكنها خرجت بمفردها وتأخرت في الرجوع فذهب «دومينيك» و«فرانسيس» للبحث عنها فوجدها «دومينيك» في حانة. وبالطبع كانت ثملة واضطر «دومينيك» أن يتشاجر مع اثنين من البحارة قبل أن يستطيع أن يأخذها. ولكنها فسرت تصرفه تفسيرًا خاطئًا وعندما عاد «فرانسيس» أخبرته أنها لا تحبه وإنما هي تريد «دومينيك» وأن «دومينيك» يشعر الشعور نفسه نحوها ورغم أن

«دومينيك» أنكر ذلك تماماً لكن «فرانسيس» لم يصدقه.

«أوه يا «برانت».

«شيء كريه.. أليس كذلك؟»

«ماذا حدث بعد ذلك؟»

«وفي المركز الباقي ـ انزلق «فرانسيس» على الطريق وفقد سيطرته على سيارته واصطدم به «دومينيك» و«جان بارلي» وقتل «فرانسيس» و«جان» وأصيب «دومينيك» إصابة خطيرة.»

«وبعد ذلك ماذا حدث «لكريستينا»؟»

«عاشت.. كانت ما تزال تريد «دومينيك» ولكن هو لم يكن يريدها منذ البداية أما بعد الحادث فلم يكن يطيق رؤيتها.»

«لابد أنها كانت تعيسة.»

«من الجائز. بطريقتها الخاصة.»

وبدأ «برانت» يقطع اللحم إلى شرائح.

«ولكن السيد «لابول» لم يكن لديه وقت للحسد منذ ذلك الحادث.»

وهز رأسه.

«كانت تلك المأساة مضاعفات لم تكن تستطيع توقعها لقد أصيب «الكولونيل لابول» بالشلل عندما سمع بحادثة ولده ولم يشف تماماً. وماتت زوجته بعد وقت قصير.»

وتنهدت «جيليان».

«هذا فظيع.»

ونظر «برانت» إلى وجهها الشاحب.

«أنت الآن تستطيعين أن تدركي لماذا هذه القصة ليست المفضلة.»

«بالطبع.»

أمسكت «جيليان» بيديها.

«ولكن «دومينيك» ليس مسؤولاً عن الحادث. أليس كذلك؟»

«بالطبع لا ـ كان الطريق مبللاً ولم تكن سيارة «فرانسيس» الوحيدة التي

انزلقت. ولكن عندما يحدث مثل ما حدث وتكون علاقتك بالشخص المصاب ليست على ما يرام فمن الطبيعي أن يلوم المرء نفسه إذا ما حدث مكروه. كان السيد «لابول» قريباً جداً من الواقعة بحيث لا يستطيع أن يرى الموضوع من بعيد ـ إلى جانب ما حدث بعد ذلك. أظن أنه كان يريد أن يبتعد عن المجتمع الآن.»

«ربما هذه هي التي يشغله ـ فقد ألف كتاباً قبل ذلك عن والده. وقد انعزل إلى فيلته.»

قالت «جيليان» وقد أثار ذلك اهتمامها:

«لم يخبرني بذلك. وهل كان كتاباً ناجحاً؟»

«جداً وقد در مالاً كثيراً لكنه لم يغير موقف السيد «لابول».»

«هل تظن أن أي شيء قد يغير موقفه؟»

«أشك في ذلك. لهذا شعرت أني يجب أن أخبرك.»

ونظرت «جيليان» إلى يديها.

«أنا لست طفلة.»

«أعلم ذلك ولكن لا تبني أحلامك على الرمال المتحركة. لا تتوقعي شيئاً حتى لا تخيب آمالك.»

«هذا كلام متشائم جداً.»

«إن السيد «لابول» إنسان متشائم يا «جيليان» وكما قلت فأنا لا أريدك أن تتألمي.»

٧ ـ الهرب

في عصر ذلك اليوم بدأ الثلج يتساقط مرة أخرى، واستدارت عن النافذة وأخذت تعاين الطبق الفارغ. خرج «بولت» ليهتم بالحيوانات وأصر أن تبقى في الداخل. لم تعترض لأنها كانت تشعر بالإرهاق وعدم النشاط. كانت تحاول أن تقنع نفسها أن هذا الشعور سببه الأيام التي قضتها في الفراش لكنها كانت تعلم أن هذا غير صحيح. ورغم ما قاله «بولت» فإن تفكيرها ظل يدور حول ما حدث في غرفة النوم.

وكان تنفسها غير منتظم وهي تذرع الغرفة بقلق. إنها المسؤولة عما حدث. بدأت هي بلمسه وتقبيله. ولكنه كان اندفاعاً لم تستطع مقاومته وما حدث مازال يثيرها ويجعلها تشعر بضعفها.

وصعدت إلى غرفتها وألقت بنفسها على الفراش وهي تنظر إلى ندف الثلج يتساقط خلف النافذة. بدأت تفهم أنه كلما طال مقامها هنا كلما أصبح من الصعب عليها أن ترحل. وما بدأ كحبس إجباري تحوّل إلى أسر لذيذ ولكنه أكثر خطورة. وصلت إلى الحد الذي تشعر فيه أنها لا تريد أن ترحل. وجعلتها هذه الفكرة تهب جالسة في فراشها وهي تلف ذراعيها على ركبتيها وقد قطبت وجهها بقلق. ماذا ستفعل؟ ماذا تستطيع أن تفعل؟ وماذا تريد أن تفعل؟

بقيت في غرفتها حتى المساء. ثم أخذت حماماً وارتدت ثوباً طويلاً من الحرير الكريب الأسود الذي يظهر بياض عنقها، وتركت شعرها ينسدل على كتفيها. وعندما نظرت إلى نفسها في المرآة تأكدت أنها تبدو في أحسن صورة.

ولكن عندما دخلت غرفة الجلوس بعد بضع دقائق وجدتها خالية فأطبقت

شفتيها على سيطرتها مع «بولت»؟ هل هذه هي طريقته ليعرفها أن ما حدث بينهما لن يتكرر؟ ووقفت في وسط الغرفة تعض على شفتيها عندما انفتح الباب. ولكن القادم لم يكن «بولت» كما توقعت بل «دومينيك لايل».

كان يرتدي هذا المساء قميصاً حريرياً كحلياً وبنطلوناً أزرق. ونظر بوقاحة إلى ملامح «جيليان» المتوترة فلم تستطع أن ترد نظرته. وعندما التفتت نظرته إلى أسفل أرخت عينيها باضطراب.

ثم غير اتجاهه ودخل الغرفة وهو يعرج. وأغلق الباب وراءه ثم مرّ بجانبها فلمس طرف ثوبها بقدمه ثم ذهب ووقف مديراً ظهره إلى المدفأة.

«يبدو أنك لا تنتظرين أن أكون أنا القادم نحوك».

قالت «جيليان» رغماً عنها:

«أنا لا...»

ثم انتهت وتساءلت:

«كيف حالك هذا المساء؟»

وسألت عنها «دومينيك»:

«هل تحسنت بعد تدليلك القوي؟»

«أشعر بتحسن».

«ولا تشكرينني؟»

«شكراً! إذن ماذا أفعل بالضبط؟»

«تستطيع أن تسأل عني».

ولوى شفتيه.

«هل هذا ضروري وأنت تبدين في أحسن حال؟»

«ألم تحاول أن تأتي وتسأل عني وأنا مريضة؟»

«هل كنت ترغبين بذلك؟»

فأحنت «جيليان» رأسها.

«فالتصرف المهذب يقتضي ذلك».

«ولكنك لا تتوقعين التصرف المهذب مني؟ أليس كذلك؟ كما أكدت لي أنت

لتعزيني صحبتها فلسفياً وعشيرها عقلياً وجسدياً.

ونظرت إليه «هيلين» وهي ترتعش:

«هذا كان في البداية قبل أن أعرفك».

«وأنت لا تعرفينني يا آنسة «جيسي»».

نظرت إليه باستعطاف.

«أنت أرجوك.. ألا تستطيع أن تتصرف بلطف».

«وإذا كنت تقصدين أن نتكلم عن مواضيع غير شخصية فهذا ممكن.. عم تريدين أن نتكلم؟»

ضغطت «هيلين» أسنانها في إحباط.

«وأنت لست تفهمني عن شيء».

«سأتكلم يا آنسة «جيسي» أفهمك جيداً».

ومن الغاز أن يحاول «بولت» في هذه اللحظة وهو يحمل الطعام ذا الرائحة الشهية كان من حسن الحظ كانت «هيلين» تنتظر أن يحضر «دومينيك» الطعام لتجلس إليهما في العشاء كما فعل من قبل ولكنه لم يفعل [illegible] «بولت» حول السرير.

وحاول «دومينيك» أثناء تناولها الطعام أن يخفف ما قطعته بالحديث في مواضيع عامة. تكلم عن كتب قرأها وأماكن زارها كما شجعها على الكلام عن حياتها مع والدها وزوجة أبيها. ووجدت نفسها تخبره بما أخبرت به «بولت». وتحدثت إلى [illegible] والسعد وقد بدأت تفهم من خلال كلماته الشعور بالوحدة الذي شعر به والدها عند وفاة والدتها والذي دفعه للرغبة في الزواج للخروج من [illegible] عن خسارته. وشعرت لفهمه العميق الذي لم [illegible] بشكل تواؤلي. ولكن هذا لم يكن موضوع مناقشة.

شجعتها رقته فقالت:

«أظن أن كل شخص يحتاج لرأي موضوعي كي يفهم مشكلته الخاصة. أقصد في حالتك مثلاً. كنت متأثراً لدرجة أنك لم تستطع أن تنظر إلى حادث شقيقك نظراً واضحاً».

على الفور جمدت هيلين «دومينيك».

«من أخبرك عن حادث شقيقي؟ أوه.. لا تجيبي نفسك «بولت».. أنا أعلم.. إنه «بولت». كان يجب أن أعلم أنه لن يستطيع أن يبقي فمه القذر مقفولاً».

شعرت «هيلين» بإحساس مريع.

«لا، أرجوك.. لا تلم «بولت». أنا السبب لأنا سألته فأجابني.. هذا كل ما في الأمر».

«ليس له الحق في مناقشة أموري مع أحد».

«لم تناقش أمورك. أخبرني فقط بالوقائع».

وقام «دومينيك» واقفاً وقد أطلق من الألم الذي سببته له الحركة المفاجئة. وقف لحظة وهو ينظر إلى رأسها المنحني ثم سار يخرج بعنف عبر الغرفة وكل مواقفه يعبر عن العنف المكبوت. ونظرت إليه «هيلين» ثم قامت من كرسيها وركعت على الأريكة وهي تنظر إلى ظهره العريض وتحاول أن تلطفه من مرارته التي لا داعي لها.

«دومينيك».

استدار ونظر إليها مرة.

«لا تستعطف. سأنسى ما قلته لي «بولت» [illegible] هذا حد وقف الطريق.. لذا لا تتحدث».

ووقف وهو يستند بثقل على ساقه غير المصابة.

«هل حق تعتقدين أني أريد الكلام عن الحادث معك؟»

رفضت «هيلين» أن تتركه يغضبها.

«أريد أن أساعدك».

«حقاً».

عاد يخرج إلى الأريكة.

«بأي شكل يمكنك أن تساعديني؟»

وشعرت «هيلين» بالانتصار لأنه استطاع أن يثير فيها شعور القهر رغماً عنها.

«بمساعدتك على رؤية الحقائق كما هي. بأن أبين لك أن الناس ليسوا بدون شعور

www.lilas.com

كما قلت. يجب أن تتعلم أن تعيش مع الناس مرة أخرى»

«وما رأيك إذا قلت لك إني أفضل حياتي كما هي الآن؟ وليست لدي الرغبة في العيش كما تتكلمين»

وشعرت هيلين بالهزيمة لكنها قالت:

«كيف يمكنك أن تعرف ذلك؟ إنك لم تحاول.. أظن أنك خائف»

فالتفت حول الأريكة بحركة واحدة سريعة وأمسك شعرها بيده وهو يلفه حول أصابعه حتى اهتز رأسها بشدة وآلمها وسألها بقسوة:

«ما الذي تعرفينه عن هذا الموضوع؟ إنك تتكلمين عن الموضوعية وعن التفهم.. ما الذي تعرفينه عن هذه الأشياء؟ ما الذي تعرفينه عن الرقاد شهوراً في سرير مستشفى وأنت أقرب إلى الموت من الحياة؟ تتمنين لو كنت أنت الضحية.. هل تستطيعين أن تكوني موضوعية حينئذ؟ هل تستطيعين أن تفهمي تلك القوة التي تدمر إنساناً وتترك الآخر مشوهاً مدى الحياة»

فقالت باحتجاج وهي ترفع يدها إلى رأسها الذي يؤلمها:

«لماذا رفضت إجراء العملية الجراحية؟»

«كنت أفضل أن أتذكر الحادث. إلى جانب أني لا أريد أي تركيبة غريبة في جسمي. فطلبي قد يكون مقبولاً ولكنه خطئي وليس صورة حسنة منه»

«دومينيك.. إنك قاسٍ»

«هكذا! إذن كوني موضوعية»

قال ذلك وهو يصدر صوتاً متكبراً ساخراً.

واتسعت عينا هيلين بألم وعدم تصديق وقالت بصوت مجروح:

«إنك لا تعني ذلك»

فقست وجهه وصدرت عنه آهة تعبر عن أزمة نفسية ثم جلس بجانبها على الأريكة وأخذ يدها بين يديه ورفع راحتيها إلى شفتيه.. ثم قال بصعوبة:

«أرجوك لا تنظري إليّ هكذا.. لا أريد أن أؤذيك ولكنه رغماً عني»

نظرت هيلين إلى رأسه المنحني وضغط فمه على راحتيها بدفء. ارتعشت تنظر إليها وعيناه تعبران عن عواطفه. وضع يده خلف عنقها ثم شد جسمها

الناعم.

لم تستطع هيلين أن تتحرك وحتى لو أرادت ذلك.. كان تأثيره عليها قوياً لدرجة أنها كان يمكن أن تستسلم واقتربت منها أكثر وضمها إليه.

«أوه يا هيلين.. أنت لا تعلمين ماذا تفعلين بي»

أصبحت لا تهتم بشيء، ولفت ذراعيها حوله. شعرت بأطرافها تتخدر وتمنت لو استطاعت أن تقضي الليل كله هنا في هذه الغرفة الدافئة المضاءة.. همست تحت فمه:

«إني أحبك يا دومينيك»

انقلب جسمه على الفور وابتعد عنها وهو ينظر إلى السقف وقد انقبضت ملامحه.

وقالت مرة أخرى وهي تعتدل مستندة على مرفقها:

«دومينيك! ماذا حدث؟ قلت إني أحبك.. أنا فعلاً أحبك»

ربما يعتقد وهو يقوم عن الأريكة.

«لا تقولي هذه الأشياء لي. إنك لا تعرفين ما تتكلمين»

«أعرف.. ما الأمر؟ ماذا حدث؟»

نظر إليها ببرود وهو يصلح ملابسه ثم قال بصراحة:

«أنا لا أحبك. بالنسبة إليّ الحب لا يدخل في هذا..»

لم تستطع هيلين أن تكتم الشهقة التي أفلتت منها

«ولكن.. ولكن الآن..»

قال بقسوة:

«كنت أريد أن . . . ظننت أنك كنت تريدين الشيء نفسه»

«فعلاً..»

«إني أتساءل: هل كنت مستعدة أن تنسي كل شيء عن الموضوع بمجرد انتهائه. أتنسي كل شيء عن الموضوع؟»

قالت هيلين وهي تعتدل وتضم فتحة ثوبها:

«دومينيك.. أنا لا أصدق أنك لا تحبني»

نظر إليها بوجوم للحظة ثم عرج نحو كرسيه وجلس عليه ومدّ يده وسحب زجاجة الشراب.

ـ أتساءل لماذا لا تستطيع النساء أن تفهم أن الرجال يمكن إثارتهم بدون أن يكون لديهم أكثر من الرغبة الجامحة.

ظهر تعبير "هيلين" بالغثيان من تعبيراته على وجهها ثم قالت:

ـ أظن أن كلامك هذا مقزز.

ـ هذا لأنك تتوقعين من الشخص منحرف ومشوّه عقلياً.

ـ أوه يا "دومينيك".

ـ اسكتي.

انتهى بذلك وهو يرفع الكأس الملأى إلى شفتيه.

ـ لا أريد أن أتكلم ثانية عن هذا الموضوع، ولا أريد أن أتكلم معك ثانية. إنك تجعلني أشعر بالتقزز.

وكتمت "هيلين" بكاءها.

ـ لكن! كيف تريد هذا الكلام أنا أعرف أنك لا تعنيه. أنا لا أصدقك. هل لأن فكرتك عن نفسك عالية إلى هذه الدرجة؟ أؤكد لك أن ما حدث بيننا الآن وقع بيني وبين أخريات من قبل. بل وباستمتاع أكبر.

كان هذا أكثر مما تستطيع سماعه فوقفت محاولة المحافظة على كرامتها قدر استطاعتها وقالت وهي تنظر إليه بعينين معذبتين:

ـ أظن أنك كريه... كريه! لا أعرف كيف ظننت أنك رجل محترم! وكيف تركتك تلمسني. إنك حقير حقير. أنا أحتقرك بشدة.

ـ حسناً.

قال وهو يستلقي في كرسيه بلا اهتمام.

ـ معك حق الظن بشتائمك أحبها... والآن بما أن هذا منزلي أرجو أن تخرجي من الغرفة لأني أنوي أن أشرب حتى الثمالة.

وعبرت "هيلين" أرضاً وهي تصعد إلى غرفتها. كانت تخشى أن يظهر "بول" ويسألها إذا كان كل شيء على ما يرام. لأنه لو حدث هذا لانهارت تماماً أمامه.

لكنه لم يظهر ووصلت بسلام وبعدها وصلها انهارت على السرير وأخذت تبكي بحرقة استمرت بضع دقائق وعندما انتهت العاصفة ظلت راقدة تشعر أن كل قوتها خارت.

قامت وخلعت ثوبها الأسود ببطء وهي تشعر أنها لا تريد أن تراه ثانية وألقته تحت الوسادة ثم وقفت بملابسها الداخلية تتساءل: وكيف ستقضي يوماً آخر في منزل "دومينيك لاسيرا"؟

لم تكن هناك فائدة من أن تكرر لنفسها ما قالته له من أنه كريه وحقير وتقنع نفسها بأن تكرهه. لأنها تعلم أن هذا غير صحيح وأنها تحبه. نعم إنها تحبه حقاً وهذه الحقيقة أقسى على نفسها من الغضب والإحباط التي تعرضت له الأيام الأولى.

إذن كان "بول" محقاً فيما قال وعليها أن تتصرف الآن. بالطبع لم تكن تستطيع أن تلجأ إلى "بول" ليساعدها ولكن كان ما تزال هناك إمكانية استخدام سيارة الجيب. وكلما فكرت في الأمر كلما تأكد لها أنها يجب أن تهرب من هنا قبل أن تحدث كارثة أكبر.

تنهدت وسألت نفسها سؤالاً يمكن أن يحدث أكثر مما حدث؟ ووجدت على نفسها أن البقاء هنا مع "دومينيك لاسيرا" يؤثر عليها تأثيراً غريباً وتخشى أن يأتي اليوم الذي لا تستطيع فيه أن تمنع نفسها من الانزلاق إلى تلك العلاقة المحرمة. إنها تعلم أن هذا يمكن أن يحدث، ورغم ما قاله فهي تعلم أنه يجدها جذابة ولكن دوافعه ليست كدوافعها.

وهزت رأسها ثم أخرجت بنطلونها الجينز وبلوزة وارتدتهما. وأخذت تفكر في موقفها. الساعة الحادية عشرة وسيذهب "بول" بعد قليل لينام، وإذا نفذ "دومينيك" ما قاله وشرب حتى الثمالة فلن تكون هناك مشكلة معه. إذن لم يبق إلا "لسيا" ثم "بول". إنها تنام في المطبخ هذا يعني أنها يجب أن تخرج من الباب الأمامي. ولكن لسوء الحظ الباب الأمامي قريب جداً من باب غرفة الجلوس ولكن هذا أمر لا مفر منه. وفكرت بشكل إن عليها التصرف الآن وإلا فلن تكون أمامها فرصة أخرى.

وعندما أصبحت الساعة الحادية عشرة والنصف كان المنزل هادئاً كالقبر. ونظرت من خلال النافذة فوجدت الثلج مازال يتساقط ولكن هذا لا يهم؛ ولكن مع كل هذا الثلج فإن آثارها ستبقى واضحة. وزادت بهدوء ثم أحضرت معطفها من غرفة الملابس بالصالة. إنها لن تأخذ سوى حقيبة يدها. أما باقي ثيابها فلا تهمها.

كان هناك مزلاج على الباب الأمامي، قرب القفل العادي. ولحسن الحظ أن بياض الثلج الناصع كان يضيء الغرفة. فسحبت المزلاج بسهولة ثم أدارت القفل فانفتح الباب ونظرت حولها. هواء الليل بارد لكن ليس لدرجة التجمد. وتساقط الثلج بخفة على وجهها فشدت نفسها بتصميم وسارت حول المبنى. ولكن كان عليها أن تكتشف الكاراج.

كان الأمر أسهل مما تصورت. كانت آثار عجلات السيارة ما تزال واضحة فتبعتها بخفة إلى مبنى كالفرن خلف حظيرة الأبقار. لم يكن الباب المزدوج مغلقاً بالقفل فقط بل مقفلاً أيضاً بلوح خشبي وكانت تسقطه وهي ترفعه من مكانه. عندما التفت بجانبها جسم أسود أملس فارتعدت، ولكنه لم يكن إلا إحدى القطط البرية التي تعيش في المباني الملحقة بالمنزل.

جعلها هذا الحادث الصغير عصبية. وعندما ارتفع صرير الباب الذي فتحته أجفلت. نظرت في الداخل وهي تركز عينيها لتعتاد الظلام. وشهقت عندما رأت أن العربة لم تكن سيارة جيب كما توقعت بل سيارتها السبور الصغيرة التي كانت تتخيلها مدفونة في الثلج. لكنها الآن تذكرت أن دومينيك قد طلب من بول أن يحضرها ومن الواضح أنه نجح. فتنهدت وبكت لو معها المفاتيح ولو أنها استطاعت أن تديرها.

ثم أغلقت الباب بلا فائدة. في أي حال لا بد أن السيارة لا تعمل. ولو حاولت إدارتها فستصدر ضجيجاً عالياً بلا فائدة.

ونظرت حولها في الفناء. كانت هناك آثار عجلات كثيرة، أخذت تتفحصها فوجدتها كلها تتقاطع، ولكن لم يكن هناك سوى مبنى واحد يتسع لسيارة جيب اقتربت منه بحرص. وكانت المطرقة عند الزاوية. فالجيب موجودة بداخله. ومن

العجيب أن المفاتيح في مكانها لم تستطع أن تصدق هذا.

كانت يداها ترتعشان وهي تركب السيارة وتغلق بابها بهدوء. أدارت القيادة فيها لا تختلف عن السيارات الأخرى. فربت ظهرها استعداداً للصوت الذي ستحدثه عند تشغيلها وضغطت على دواسة البنزين. ورنت فيها الحياة فارتفع صوت محركها. من الآن سيكون قد أفلت.

بعد لحظات تحركت السيارة خارجة من الكاراج واستدارت إلى اليمين حول المنزل. وتذكرت في الوقت المناسب أن تطفئ الأنوار، انكشفت قبل أن تصطدم بشيء. ثم سارت عبر الفناء المرصوف بالحصى أمام الواجهة الأمامية. ما الذي قالته بول من أن قيادة هذه السيارة صعب؛ الثلج المتراكم لا يمثل أية مشكلة بالنسبة إليها لو كانت تقود سيارتها لكانت توقفت الآن. ولكن الجيب تسير بسهولة. كانت تتبع الآثار التي لا بد أنها آثار بول عند ذهابه لتكتب البريد وكانت منفعلة بما يكفي لاسكات الشعور بالخيانة الذي بدأت تحسه. لن تفكر في الصدمة التي سيصاب بها دومينيك لايول عندما يكتشف أنها قضت أو لم يتبق أمل بول لأنها بعد كل ما حدث لم تكن جديرة بالثقة. إنها تهرب بعيداً كل ما ستفكر فيه. قطعت المستحيل. كان أمامها مرتفع من الثلوج. وبطريقة آلية ضغطت على البنزين فقفزت السيارة إلى الأمام متخطية الثلج. وزادت سرعتها وهي تنحدر بعد ذلك. شعرت عيناها بالارتياح رفعت قدميها على الفور عن البنزين. فقد كانت تسير بسرعة كبيرة ويجب أن تخفف حتى تستطيع أن تلف المنعطف القليل. ضغطت قليلاً على الكوابح رغم أنها تعلم أن هذا تصرف خطر فانحرفت السيارة وهي تلتف في نصف دائرة. ولكن عيناها حاولت السيطرة على أعصابها واستمرت في القيادة على الطريق الزلق. لكن الطريق كان ضيقاً بفعل تراكم الثلج على الجانبين حتى أن مؤخرة السيارة اصطدمت بكتلة من الثلج وارتدت مرة أخرى إلى الطريق. وضغطت على أسنانها في محاولتها للتركيز وعدم الاضطراب. وحاولت السير في منتصف الطريق مرة أخرى. ولكن دولاب السيارة انحرف جانباً واصطدمت بجسم الجليد على الجانب الآخر من الطريق

كانت الرؤية قليلة، خاصة أن السيارة تسير بسرعة كبيرة في الممر الضيق، وتنظر في هذا الجانب ثم في الجانب الآخر ورأت المنعطف أمامها وحاولت أن تدير عجلة القيادة لكنها فقدت السيطرة عليها تماماً فاصطدمت في الكتلة أمامها وألقيها للأمام فارتطم رأسها بشدة في عجلة القيادة عندما فتحت عينيها وجدت نفسها راقدة على الأرض في الطريق وصوت ظنت أنها لن تسمعه ثانية يقول:

- هيلين، هيلين .. هل أنت بخير؟

ركزت عينها على الرجل الذي يركع بجانبها وعلى نصف التكشيف ذي اللون الرمادي الفاتح وقد سقط على جبهته. وعلى ملامحه السمراء المتجهمة وعينيه الصفراوين الغريبتين وقد بدا فيهما الاهتمام وهو ينظر إليها

تمتمت بصوت خفيض:

- دومينيك .. أوه يا دومينيك .. لقد اصطدمت؟

- أعرف.

كانت تبدو على وجهه علامات الإجهاد.

- وأينها الغبية الصغيرة؟ كان يمكن أن تقتلي نفسك؟

- هل كنت ستهتم؟

تمتم ثم قام واقفاً فجأة.

- نعم كنت سأهتم.

وقف بضع لحظات ينظر إلى الطريق .. رفعت هيلين رأسها بحذر .. لم يكن بها شيء على ما يبدو عدا ما شعرت به من صداع خفيف.

وقفت حائرة وهي تنفض الثلج من كتفيها استدار دومينيك إليها آمراً

- ابقي كما أنت سيحضر بول الجرار حالاً وينقذ السيارة من الربكة.

فانتفضت هيلين لأمره وأحست بشيء من عدم الاتزان استدار إليها دومينيك وقال بضيق:

- قلت لك أن تبقي حيث أنت.

فردت كتفيها في محاولة للتحدي واستجمعت قالت:

- لا تستطيع أن تعطيني أوامر أنا لست بول.

وكان يبدو عليه التفكير والاكتئاب.

- لاحظت ذلك، إن بول ليس بهذه الدرجة من الإزعاج.

- أنا آسفة.

وكانت قد بدأت تفقد ما تبقى لها من تماسك. كان الموقف أكثر مما تستطيع أن تحتمل .. الهاتف الغاضب لها هذا المساء، ثم البرد الذي سببته محاولتها الهروب من المنزل. وأخيراً جاء هذا الاصطدام والنهاية التعسة لكل أملها كأنها قشة تتعلق بها.

وشعرت بالدموع تنهمر على خديها فهي لم تشعر بمثل هذا الشقاء من قبل.

وسمع دومينيك بكاءها المكتوم فاستدار ونظر إليها كانت في حالة سيئة. الثلج ما زال عالقاً بشعرها وملابسها وشعور بالخزي الكامل على وجهها

قال بضيق بالغ:

- أوه يا هيلين!

وقبل أن تفهم ما يفعله، رفعها بين ذراعيه وأخذ يسير نحو المنزل. كانت ذراعيها حول عنقه ورأسها يستند إلى صدره وبدأت تشعر بالدفء الجميل يسري فيها ولكنها تذكرت فرجته.

- أرجوك .. أنزلني أستطيع أن أمشي .. لا يجب أن تحملني.

قال بحزن:

- أنا لست عاجزة تماماً.

حاولت أن تجعله ينظر إليها ولكنه لم يفعل فاكتفت بأن تستمتع بوجودها بين ذراعيه، وسارا لعدة دقائق في صمت.

وعندما وصلا إلى الموقع الذي كان السبب في بداية مشاكلها سمعت صوت الجرار فأدارت رأسها ورأت بول يتجه نحوهما وتوقف أمامهما تماماً ونزل ووجهه ينطق بالقلق.

- سأحضرها بأسرع ما يمكن.

صاح وهو يهز رأسه.

- معافاة .. هل إصابتها خطيرة؟

رفعت هيلين رأسها وردت:

«أنا بخير يا بولت حقاً».

ولكنها لاحظت أن كلّ اهتمامه كان موجهاً إلى العجوز.

وأعطاها موسيقاه لبولت فشعرت هيلين كأنها زائرة غير مرغوب فيها وقالت بضيق:

«أرجوكم ـ أستطيع أن أمشي».

ولكن أحداً لم يلتفت إليها. سارت السائقة القصيرة الشقية حتى وصلا وقد صلاها الشعر بشدة أن خرج موسيقاه أزياء وأن بولت يلومها على ذلك. فشكرت بأسى أنها السبب رغم كل شيء.

كان مضيفة المنزل مرة أخرى شيئاً غير سار وقد أزعجها بولت في الصالة قائلاً:

«اذهبي إلى سريرك يا آنسة وسأحضر لك مشروباً ساخناً بعد قليل».

«هذا ليس ضرورياً».

وبدأت تتكلم لكنها وجدت أنها تكلم نفسها. سار موسيقاه يخرج إلى غرفة الجلوس وتبعه بولت وراءه وأغلق الباب بشدة كأنه كان يعاقب هيلين. ونظرت إلى أعلى السلالم وجمعت عيناها مرة أخرى. فمن الواضح أنه لا يهمها أن تحاول الهرب مرة أخرى هذه الليلة ـ ولكن من يستطيع أن يلومها إلى جانب شعورها أنها الحطمة المرعبة تلك معها في قدرتها على جمع شجاعتها وحماسها لتحاول ذلك ثانية.

٨ ـ من سجن إلى سجن

أغلقت لا تعهد عينيها بعد أن وضعت رأسها على الوسادة ولم تشعر إلا بطلوع النهار. فنهضت جالسة في السرير وهي تتوقع أن تجد الصداع منازلاً رأسها لكنها لم تشعر بألم. وعندما فحصت جبهتها وجدت كدمة بسيطة يمكن إخفاؤها بشعرها.

وأخذت حمامها وارتدت تنورة خضراء قصيرة وقميصاً أبيض اللون وكانت تمشط شعرها أمام المرآة عندما أحضر لها بولت إفطارها وقال وهو يضع الصينية:

«السيد لايول يريد أن يراك يا آنسة».

لم يكن في نبرات صوته تلك الخشونة التي اعتادتها.

«هل تعرف لماذا؟»

هز بولت رأسه.

«سيشرح لك السيد لايول عندما تريته يا آنسة».

وسار نحو الباب ـ وتبعته هيلين وراءه.

«بولت! بولت، ماذا حدث؟ أنت لست غاضباً مني لأني حاولت الهرب؟»

«لا يا آنسة».

تنهدت هيلين.

«ولكنك غاضب ـ بولت، قلت بالأمس إنك لا تريد أن تراني أتألم. بالطبع أنت تعرف أنه كلما طال بقائي هنا كلما زاد هذا الاحتمال».

«نعم يا آنسة».

بأنه... بول. أرجوك حاول أن تفهم.

«أفهم يا آنسة.

«إذن لماذا أنت هكذا؟»

وقطبت حاجبيها:

«إلا إذا كنت آسفاً لأني لم أصحبه.

«نعم يا آنسة.

تنهدت هيلين:

«هل كنت تريدني أن أصحبه؟

«كان أفضل.»

وقالت باضطراب:

«وكنت تتخيل أني سأحاول. لذلك تركت مفتاح السيارة فيها.»

هز بول كتفيه:

«لا يوجد لصوص هنا يا آنسة، والمفاتيح تترك عادة في السيارة.»

«ولو...»

وهزت هيلين رأسها:

«لم أكن أعرف أنك ستحاول إلى هذه الدرجة.»

وانطلق فجأة بول:

«دومينيك هنا طوال الأسبوع يا آنسة.»

وبهذا التعليق الخاطف انصرف.

وجلست هيلين لأكل إفطارها بقلب حزين. لمدة أسبوع كان بول سندها في مواجهة عدم اهتمام دومينيك، وصديقها رغم اختلاف مواقعهما. ولكن الآن يبدو أنها ستفقد حتى صداقته. وماذا يريد دومينيك؟ أي سبب قد يكون لديه ليطلبها إلا إذا كان لمعاقبتها على تصرفاتها السيئة بالأمس.

فحصت محتويات الصينية. ما يمت إلى فكرة الأكل جعلتها تشعر بالرغبة في القيء. لكنها استطاعت أن تشرب فنجان القهوة لتهدئ أعصابها. عندما أنزلت الصينية شعرت بالارتياح لأنها لم تجد بول في المطبخ

وبسرعة ألقت كل محتويات الصينية التي لم تأكلها في صندوق القمامة وهي سعيدة أن بول غير موجود ليرى ذلك.

وهدأت نفسها ثم خرجت من المطبخ وعبرت الصالة إلى غرفة الجلوس وفتحت الباب بحذر ونظرت في الداخل لكن دومينيك لم يكن هناك. بالطبع لا بد أنه في غرفة المكتب يعمل. وطرقت باب غرفة المكتب ولكن أحداً لم يرد. نظرت في الداخل فتأكدت أنه ليس هناك. فقطبت جبينها أين يمكن أن يكون؟

قال بول وهو يقف على السلم:

«إن السيد لا يزال في سريره يا آنسة. لو كنت أعلم أنك انتهيت من إفطارك لحضرت لأرسلك.»

سألت هيلين:

«هل هو مريض؟»

واستدار بول وقال:

«تعالي من هنا يا آنسة.»

وصعدا إلى الدور العلوي واستدارا يساراً نحو غرفة دومينيك.

وفتح بول الباب وأشار إليها بالدخول. وجدت نفسها في غرفة بسيطة جداً لا تشبه غرفتها. أرضها من خشب مصقول مغطى ببعض أبسطة الزينة وجدرانها عارية. والسرير يشبه سرير جندي. والهواء البارد يدخل من النوافذ المفتوحة. لاحظت هيلين هذه الأشياء بسرعة ولكن عينيها انجذبتا إلى الرجل الجالس في السرير مستنداً على الوسائد ووجهه الأسمر شاحب ونحيل. وانتقلت نظراته منها إلى بول ثم قال:

«حسناً يا بول. يمكنك أن تتركنا.»

وانصرف بول ونظر دومينيك إلى هيلين قائلاً بجفاء:

«لا بد أنك تتعجبين لاستدعائي لك إلى هنا.»

اعترفت هيلين قائلة:

«لماذا أنت في الفراش؟ هل فعلت شيئاً كهذا؟»

تحركت ملامح دومينيك إلى القسوة وقال بخشونة

«هل يمكن أن نترك موضوع حالتي جانباً! إنك هنا لأنني قررت أن أشركك شخصياً».

«اتركني أذهب».

نظرت «هيلين» وبدا عليها القلق.

«نحن أصلحنا «بول» سيارتك وهي الآن في حالة جيدة وصالحة للاستعمال. كما أنه يقوم حالياً بإعداد حقائبك استعداداً لرحيلك».

ولم تستطع «هيلين» أن تصدق ذلك.

«ولكن ماذا عنك؟ هل أنت مستعد للرحيل أيضاً؟»

وهز «دومينيك» رأسه.

«لا أظن ذلك. سنعتمد على أنك لن تفشي مكاننا لأحد».

يا إلهي! فكرت «هيلين» بأسى... إنها لا تريد أن تذهب! ليس الآن وهو في الفراش. قالت مرة أخرى:

«ما الخبر؟ لماذا أنت في الفراش؟ أرجوك، أريد أن أعرف».

«حقاً؟ هل تستحقين لمعرفة مدى ضعفي؟»

«ولكنك لست ضعيفاً».

«وإن كنت أفترض. حقاً يبدو! ستنسين كل شيء عني وعن أمراضي السخيفة قريباً».

وأطبقت يداه على ملاءة السرير:

«لن أنسى... دومينيك... إني...»

«أرجوك أن تذهبي».

وكان صوته بارداً وحاسماً.

«مع السلامة. «بول» سيشرح التفاصيل ويحاول أن لا تجدي صعوبة في الوصول إلى الطريق الرئيسي».

تركت «هيلين» يديها وقالت بطريقة يرثى لها:

«لن أذهب إذا لم تكن تريد ذلك».

ولكنه كان بلا رحمة.

«يا فتاتي الصغيرة... أنا لم أكن أريدك هنا منذ البداية».

كان «بول» خارجاً من غرفتها وهي تسير كالعمياء في الممر وكان يحمل حقائبها وظنت أنها رأت لمسة صغيرة شيئاً من التعاطف في عينيه ولكن هذا لم يدم إلا لحظة ثم أشار إليها أن تسبقه على السلم.

قال بصوت لا تعبير فيه:

«أحضرت كل شيء. هل ستحضرين معطفك أم أحضره لك؟»

«أنا سأحضره».

لمست «هيلين» فروة الثعلب ثم قالت:

«لقد كنت أريد أن أشكرك على اهتمامك بثيابي».

«التي كانت في المطبخ؟ إنها في الخزانة يا آنسة... هل هذا كل شيء؟»

هزت «هيلين» رأسها بالإيجاب. عليها أن ترافقه حتى الخارج.

وكان قد أحضر سيارتها إلى الباب ولاحظت أنه قام بتنظيفها، ووضع حقائبها في صندوق السيارة ثم أعطاها المفتاح قائلاً:

«المفتاح الآخر في «الكونتاكت»... هل أنت مستعدة؟»

هزت «هيلين» رأسها بالإيجاب... كانت أعجز من أن تتكلم من شدة العاطفة وحسرة.

وأشار إلى الطريق الذي سارت فيه الليلة الماضية وقال:

«اتبعي هذا الطريق حوالي ميل ونصف وستجدين منعطفاً على يسارك سيؤدي بك ويوصلك إلى قرية. هذه القرية هي «هوكسين» إذا سألت هناك فسيدلونك على الطريق الذي يؤدي إلى المكان الذي تريدين الذهاب إليه».

هزت رأسها مرة أخرى ثم استطاعت أن تقول أشكرك وهي مختنقة بالبكاء. «مع السلامة يا آنسة».

«مع السلامة».

نظرت «هيلين» مرة أخيرة إلى المنزل ثم إلى الرجل الذي يقف أمام الباب ثم ركبت السيارة وأدارت المحرك وتحركت بعيداً بدون أن تنظر خلفها.

وصلت إلى «هوكسين» قبل أن تمالك نفسها وعندها واتضح لها

الطريق الذي تسلكه.

وسارت بدون تفكير، يكفي أنها عائدة إلى البيت. وأي أفكار كانت لديها لتفسد عدة أسابيع في منطقة البحيرات أصبحت مرفوضة الآن. وحتى منزل أبيها في ميدان بلزباري حيث يعيش مع إيزابيل فهو يمثل ملاذاً لها الآن وإحباطاتها المرهقة.

كانت الساعة قد تجاوزت الثانية بقليل عندما وصلت إلى الميدان ورأت سيارة والدها الرولزرويس الرمادية أمام الباب، وتوترت أعصابها. كان هذا شيئاً آخر عليها أن تواجهه، وكانت تشعر أنه لن يكون سهلاً. كانت أطرافها متخشبة بعد أربع ساعات من القيادة، وكانت تشعر بصداع سببه التوتر العصبي. وصعدت سلالم المنزل ثم فتحت الباب بمفتاحها، وقد جذب صوت فتح الباب سيدة سمراء صغيرة الجسم، عندما رأت هيلين رفعت يديها في انفعال ثم صاحت:

«أوه... آنسة هيلين، شكراً لله لقد عدت».

أغلقت هيلين الباب الخارجي واستندت عليه لحظة تستجمع قواها ثم حيّت مديرة منزل والدها بهدوء:

«أهلاً يا بيتي... هل كان هناك ذعر؟»

وهزت بيتي رأسها.

«وأي ذعر! أين كنت يا آنسة؟»

«يا إلهي! هيلين!»

ونظرت هيلين إلى مصدر صوت والدها. كان ينزل السلم بسرعة وهو يحدق فيها وكأنه لا يصدق عينيه. وشعرت بالخجل من نفسها عندما رأت خطوط الإرهاق حول عينيه. وفي لحظة كانت في أحضانه القوية وهو يضمها بشدة إلى صدره.

أخذ يتمتم وهو يتجاهل تماماً وجود بيتي:

«أوه، شكراً لله، شكراً لله. أين كنت أيتها الصغيرة المتعبة الغبية؟»

شعرت هيلين بالدموع تكاد تنهمر من عينيها، لكنها يجب ألا تسمح لنفسها بالبكاء. إذا فكر والدها أنها تبكي لرؤيته فإن أي ميزة اكتسبتها بتغيبها ستضيع

منها ثانية.

وكانت أخيراً بعد أن أطلقها وأخذ ينظر إليها كأنه لا يستطيع إلا أن يفعل ذلك.

«ألم تصلك رسالتي؟»

«رسالتك! طبعاً وصلتني رسالتك، ولولا ذلك كنت فقدت صوابي الآن. بحق السماء أين كنت؟ كانت نصف شرطة بريطانيا تريد البحث عنك».

استطاعت هيلين أن تبتسم.

«هل فعلت؟»

«نعم لقد فعلت، وكدت أقنع إيزابيل. الحضور أيضاً أين كنت بحق الشيطان؟»

سحبت هيلين نفسها من يديه ونظرت إلى بيتي باستعطاف:

«هل يمكن أن أشرب شاياً؟ لم أتناول شيئاً منذ الصباح الباكر».

«بالطبع».

ونظرت بيتي إلى [illegible] جيمس للموافقة وعندما هز رأسه موافقاً ذهبت بسرعة ثم سار والد هيلين إلى المكتبة وأغلق بابها المزدوج وراءهما.

قال بعد أن جلست في كرسي مريح إلى مساند:

«والآن أريد أن أعرف كل شيء».

تنهدت هيلين وهي تنظر إلى يديها:

«حسناً ليس هناك شيء كثير يقال عنه».

«ماذا يعني هذا بالضبط؟»

رفعت كتفيها قائلة:

«ذهبت إلى منطقة البحيرات».

«ماذا فعلت؟»

«سمعتني يا والدي، ذهبت إلى منطقة البحيرات، إلى ذلك الفندق الصغير في بلزبيس الذي اعتدنا النزول فيه عندما كنت طفلة».

فضاقت عينا [illegible] جيمس وقطب جبينه.

«بالقوس الأسود».

«نعم على الأقل: قضيتها أوقاتاً سعيدة هناك. أليس كذلك؟»

حاولت هيلين أن تبدو متحمسة رغم أنها لم تكن تشعر بأي حماس، وقام والدها عن الكرسي وسألها بحدة:

«ولبثت هناك كل هذه المدة؟»

«نعم ـ أظن أنه آخر مكان كنت تفكر أن تبحث عني فيه.»

«في الواقع آخر مكان.»

وأخرج علبة سكائره وأخذ منها سيكارة وضعها في فمه.

«ما الذي كنت تريدين الوصول إليه بهروبك؟»

استرخت هيلين، سيسير الأمر على ما يرام ـ أسهل مما توقعت حقاً. سيغضب والدها بالطبع بعد أن يستنفد شعوره الأول بالاطمئنان عليها، ولكنها متأكدة أنها تستطيع أن تسوي الأمر.

ونظرت إليه بحب ـ إنه ليس سيئاً حقيقة في قرارة نفسه. وبعد التجربة المؤلمة التي مرت بها هذا الأسبوع فإن المشاكل التي ستواجهها معه تبدو تافهة بالمقارنة. وتذكرت العاطفة التي مرت بها فشعرت بشعور مفاجئ باليأس القاطع فأطبقت شفتيها وحاولت أن تركز تفكيرها على ما يقوله والدها فقط.

وقالت أخيراً:

«كنت أحتاج لبعض الوقت يا والدي ـ وقتاً لأكون بمفردي ـ لأراجع الأمور بيني وبين نفسي.»

ورفع فيليب جيمس كأسه من الإبريز واحتسى. كان متوسط الطول ولكن جسمه النحيل قليلاً كان يجعله يبدو أكثر طولاً.

وقال ببطء:

«أظن أن هذا الكلام مقصود به كابح السيارة.»

«نعم بشكل ما.»

«وأنك ما زلت تصرّين على عدم الزواج منه؟»

«نعم.»

قال بعنف:

«ولكن مع من كنت؟ لأني أؤكد لك يا هيلين أنك لم تنزلي في القوس الأسود في بياريتس.»

فلمحت هيلين أن بيتي دخلت بصينية الشاي في هذه اللحظة وأخذت ترتب الفناجين في أطباقها ولفتت النظر إلى طبق الشطائر والبسكويت وكعكة الفواكه الطازجة تلك.

«ظننت أنك قد تكونين جوعى يا آنسة ـ إنك تبدين نحيلة كمن كان بعيداً أياماً لم يكونوا يطعمونك جيداً.»

وصاح فيليب جيمس بغضب:

«هل كنت تتنصتين وراء الباب يا بيتي؟»

واحمرت بيتي.

«لا يا سيدي، أنا لا أتنصت على أحد. أنا لست من ذلك النوع. ولكنها ليست غلطتي إذا سمعتك تقول أن الآنسة هيلين لم تكن في ذلك الفندق.»

وهز فيليب جيمس رأسه باستسلام.

«هذا يكفي يا بيتي ـ يمكنك أن تذهبي ـ الآنسة هيلين تستطيع أن تأخذ ما تريد بنفسها.»

وانصرفت مدبرة المنزل وبعد ذهابها اتكأت هيلين على إبريق الشاي وهي تحاول إخفاء مفاجأتها بما قاله والدها.

«حسناً يا هيلين أنتظر الرد.»

وقال والدها وهو يعود إلى كرسيه أمامها ويطفئ سيكارته التي لم يدخن إلا نصفها:

«أريد أن أعرف أين كنت؟»

أحنت هيلين كتفيها وسألت وهي تحاول أن تكسب بعض الوقت:

«كيف علمت أني لم أكن في بياريتس؟»

«بالطرق المعروفة ـ لقد أجرينا البحث وعلمنا أنك لم تكوني مسجلة هناك في الفندق.»

«ولكن كيف علمت أني قد أذهب إلى هناك؟»

«لم أعلم ولكن عندما تبين أنك لم تغادري انكلترا على الأقل بالطريقة المعروفة كان يجب أن أفكر في المكان الذي قد تكونين فيه.»

«ولكن بالبريد؟»

«لم لا؟ تقضيها فعلاً أوقاتاً سعيدة هناك. أنا أوافقك على ذلك - كان اختياراً ممتازاً.»

حركت عيلين رأسها يميناً ويساراً - إذن لو كانت ذهبت إلى الفندق الصغير الذي كان يبدو أحسن ملجأ لها من أسبوع لوجدها والدها بعد أيام قليلة. كان يجب أن تفعل الشيء غير المنطقي على الإطلاق. ولكن لو فعلت ذلك لما التقت دومينيك لأول مرة ولما وقعت في حبه ولما تحملت كل الآلام والآلام على يديه.

وانتقد شعورها باليأس. هل كانت تفضل ذلك؟ ألا تتعرف عليه إطلاقاً وألا تشاركه ولو لوقت قصير على الأقل أيام وحدته في عزلته؟ لكنها الآن ستعاني من آلامها الخاصة هي أيضاً.

وقالت بيأس:

«ولكن أنا لا أستطيع الاحتمال الذي تطوي لحظة أبداً بدون أن تتكلم قولاً من العاموين البيت غني. ما الذي كنت تريده بالضبط مني؟ ربما كنت ستعيدني أو وصلتني في الفندق - القرد الأسود.»

بدا والدها يغضب وقال بصبر نافد.

«لا تجيبيني أنت أغضبتني يا عيلين. لقد سألتك أين كنت ومع من. هل ستجيبينني؟»

نظرت إليه عيلين.

«وإذا قلت لا؟»

توقف والدها كأن القلب يخذله.

«عيلين. المرة الأخيرة.»

«لم أكن مع أحد.»

«هل تتوقعين أن أصدق ذلك؟»

«لا يهم ماذا تصدق.»

«عيلين. إني أعرفك.»

«أنا يا والدي - أرجوك - لا أستطيع أن أشرب الشاي بدون هذا التحقيق.»

ودفع والدها يديه في جيبي بنطلونه.

«حسناً.. حسناً.»

وقال وهو يحاول ألا يفقد أعصابه.

«اشربي الشاي. أستطيع أن أنتظر.»

سكبت عيلين الشاي ووضعت الحليب ثم أخذت ترشفه ببطء. كان الشاي الساخن منعشاً جداً وسكبت لنفسها فنجاناً آخر وكانت تشعر أن والدها يراقبها وأن عينيه ورداه مع كل دقيقة.

ولم يعجبها الطعام. ربما تشعر فعلاً بالجوع ولكنه جوع الروح وليس الجسد.

كانت صورة دومينيك الأخيرة وهو شاحب ومتعب في سريره لا تفارقها.

«حسناً يا عيلين... هل ستخبرينني أين كنت؟»

وتنشقت صوت والدها إلى أعصابها الذي...

وقالت ببطء:

«لا أريد أن أتكلم عنه يا والدي. لا أستطيع أن أقول أين أمضيت بعض الأيام الماضية.»

«ولكن أين أمضيت هذه الأيام - في فندق؟»

وترددت عيلين.

«وأين يمكن أن أمضيها؟»

«هذا ما أريد أن أعرفه.»

تنهدت.

«إني أفضل عدم مناقشة الموضوع - إذا كان هذا لا يضايقك.»

«إذا كان لا يضايقني؟»

وقال وقد أقلق ليشتمه.

«اسمعي يا عيلين - يجب توضيح الأمر - ليس فقط لي ولكن لجميع الآخرين الذين استأجروا البحث عنك. ماذا أقول لهم؟»

www.lilas.com

«لا تستطيع أن تقول إنه كان خطأ كبيراً وأنني لم أكن مخطئة؟ أقصد أن رسالتي وصلتك».

«هل تظنين أني أطلعتهم على رسالتك؟ هل تظنين أنني غبي؟»

ووضعت هيلين فنجانها الفارغ.

«أنا آسفة يا والدي لكنني لا أريد أن أتكلم في هذا الموضوع».

«لم لا؟ ما الذي حدث؟ هيلين... قد لا أكون ذكياً فيما يختص بك ولكنني أعلم أنك تظنين شيئاً حاله لي، بخصايلك أو شخص ما، وأنا أنوي معرفة الحقيقة».

وضاقت عيناه.

«ما هذه الكدمة في جبهتك؟ كيف حدثت؟»

«لا شيء... لقد خبطت رأسي هذا كل ما في الأمر».

«كيف خبطت رأسك؟»

«كيف يخبط أي شخص رأسه؟ أرجوك يا والدي إنني متعبة ومرهقة... هل أستطيع أن أذهب إلى فراشي؟»

«هل ضربك أحد؟ هل هذا ما حدث؟ لأني أحذرك يا هيلين إذا كان هذا ما حدث واكتشفت من هو...»

«لا تكن درامياً يا والدي... إنك تعلم شعوري بالنسبة إلى مايكل قبل أن أذهب ولن تستطيع إرغامي على هذا الزواج ولا شيء تستطيع أن تقوله سيجبرني عليه».

أخذ يذرع الغرفة بغضب قائلاً:

«ولم لا؟ ما الذي يعيب مايكل؟ يا إلهي. لقد قضيت معه وقتاً طويلاً وكنت أظن أنكما معجبان ببعض وكذلك والده كان يظن الشيء نفسه».

«كنا وأظن أننا مازلنا... ولكن هذا لا يكفي لأن نتزوج».

«لم لا؟ هل تظنين أني وإيزابيل...»

«ما فعلته أنت وإيزابيل يخصكما وأنا لا دخل لي به».

واحمر وجه والدها.

«إذا كنت لا تريدين أن تتزوجي مايكل إذن لابد أنك وجدت شخصاً آخر».

«حقاً يا والدي».

«ما الخطأ في هذا الرأي؟»

«من كنت سأقابل وأنت ووالد مايكل وراءنا في كل خطوة؟»

«لا أعلم... من الظاهر أنك تعرفت...»

«لا لم أفعل».

ونظر في عينيها.

«هل يمكنك أن تؤكدي بأنك قضيت هذه الأيام الأخيرة بمفردك... أو على الأقل بدون صحبة رجل؟»

أحنت هيلين رأسها بسرعة حتى لا يرى والدها وجهها وقالت بتعب:

«أنا لا أصدقك. أنا لم أصدقك من قبل وأنا لا أصدقك الآن... هيلين إذا كنت تكذبين علي...»

«ماذا يحدث هنا؟»

جاءت كلمات زوجة أب هيلين الباردة القاطعة كالثلج على الهواء الساخن. ولأول مرة تشعر هيلين بالسرور لرؤيتها برغم أن كلماتها لم تكن مرحبة. قالت بجفاف:

«إن لقد حدث، كان يجب أن أفهم ليلتك على هي طريقتك للترحيب بالابنة الضالة».

أحنى فيليب كتفيه العريضتين وهو ينظر إلى زوجته.

«لا تتدخلي في هذا يا إيزابيل... لقد عدت مبكرة أليس كذلك؟ ألم تستطيعي اللعب؟»

«إن أعصابك بخير يا عزيزي... ولكن الجو كان حاراً وبرغم أني أحب الشواطئ لكنها ليست لعبة يمكن أن يسعها بأسابيع متصلة».

ثم نظرت بعينين فاحصتين إلى هيلين.

«حسناً أين كنت؟ هل كنت تقضين أسبوعاً ممتعاً مع حارس الغابات؟»

«إيزابيل».

أسكتتها صيحة زوجها وقالت «هيلين» بعد الآن وسألت بهدوء:
«هل أستطيع أن أذهب إلى فراشي يا أبي؟»
قال فيليب بغضب:
«لا. نعم ولكن الموضوع لم ينته بعد».
«نعم يا أبي».

سارت «هيلين» نحو الباب وهي تحاول السيطرة قدر الإمكان على نفسها. كل شيء يتكرر مرة ثانية. المجتمع غير الطبيعي الذي تربت فيه يستمر مرة أخرى وهي تكره التكلف وعدم البساطة فيه. ربما كان «دومينيك» على حق في الابتعاد عنه. وربما يجب عليها أن تفعل الشيء نفسه. ولكن الشيء الوحيد المؤكد هو أن الأمور لن تكون كما كانت.

وخلال الأسابيع التالية حاولت «هيلين» أن تعود إلى نظام حياتها القديم. وبرغم أن معظم أصدقائها بحريتها كانوا متحمسين لدعوتها إلى العشاء لكنها كانت فقدت حماسها لهذه الأمور. كانت تريد إبعاد كل الأفكار الخاصة بذلك الأسبوع من مخيلتها. ولكن هذا كان مستحيلاً. وكان «دومينيك» يسيطر على تفكيرها. كانت لا تأكل ولا تنام وربما تأثير ذلك يبدو عليها.

وكان «مايكل فرانسيل» أول من لاحظ التغير عليها. بدأت تقابله مرة أخرى من ناحية لأنه هو ووالدها يريدان ذلك. ومن ناحية أخرى لأنه كان مرافقاً مريحاً حريصاً على مشاعرها الرحمة منعته من توجيه الأسئلة. وفكرت «هيلين» أنها لو كانت في يوم ما حدث أنها تستطيع أن تفضي بمشاكلها «لمايك» ولا تعرف ما إذا كان رد فعله سيكون منطقياً كالعادة عندما يتعلق الأمر بمسألة تخصه كهذه.

وبعد ظهر أحد الأيام بعد أن زارا أحد المعارض الفنية في قاعة «هيوارد» تناولا الشاي في مطعم صغير بجوار نهر «التيمز». كان الجو دافئاً وكانت أزهار النرجس الصفراء قد بدأت تتفتح في الحديقة. وانتظر «مايك» حتى انصرفت الفتاة التي أحضرت لهما الشاي وقال بهدوء:
«إلى متى تظنين أنك تستطيعين الاستمرار على هذه الحال؟»
ورفعت «هيلين» رأسها بحدة. كانت ترسم بأصبعها على طرف المنضدة وهي

سارحة في أفكارها وكان ينظر إليها في وجهه تقريباً. وصاحت وقد احمر وجهها:
«ماذا... ماذا تعني؟»
«أظن أنك تعرفين ماذا أعني».
قال ذلك ثم تناول سكب الشاي لنفسه.
«إلى متى تستطيعين العيش هكذا على أعصابك؟ إنك لا تأكلين ومظهرك يدل على أنك لا تنامين أيضاً».
وقالت محاولة تغيير الموضوع إلى مزاح:
«هل مظهري بهذا السوء؟»
تنهد «مايك»:
«شكلك على ما يرام وأنت تعرفين ذلك. لكننا نعرف بعضنا جيداً يا «هيلين» وأنا أعلم أن شيئاً ما أو شخصاً ما يضايقك».
قالت «هيلين» وهي تمد يدها إلى قدح الشاي:
«كان الشتاء طويلاً».
«وأنا لم ألاحظ ذلك».
«شيء ضايقك... أليس كذلك؟»
قال «مايك» وهو يشرب الشاي:
«حسناً... إذا كنت تفضلين عدم الكلام عن الموضوع؟»
وقالت «هيلين»:
«أنا لم أقل ذلك بالضبط».
«ولكن أنت تعترفين أن هناك شيئاً يقلقك؟»
هزت «هيلين» رأسها وقالت ببطء:
«نعم أظن ذلك».
«وإنه رجل أليس كذلك؟»
«طبعاً».
لم تنكر «هيلين» ذلك أبداً.
«مايك... إنك تعلم أن والدي... أقصد أنك تعلم أن والدينا يريدان أن نتزوج؟»

«بالطبع»

«ولكن خشيت... على الأقل بمعرفتك أني لا أريد الزواج منك»

فأمال مايك رأسه.

«هذا واضح جداً حتى لي»

نظرت إليه هيلين بأسف.

«أوه يا مايك إنك لطيف جداً، كنت أتمنى أن أحبك.. كان الأمر يصبح أكثر بساطة»

وهز مايك رأسه.

«الحياة نادراً ما تكون بسيطة يا هيلين وأنا متأكد أن هذه طريقة لطيفة لتخبريني أنك لا تريدينني»

«ربما»

فقالت هيلين وهي تضع يدها على يده فوق الطاولة:

«ولكنك لطيف وطيب ومتفهم»

ورد مايك عابساً

«ويا له من اعتراف خطير»

«أنت تعلم ما أقصده»

«للأسف أني أعلم.. وبعض النساء لا أعرف ولكن شخصاً آخر يفعل هذا.. هل هذا ما تحاولين قوله»

نظرت هيلين إلى يده البيضاء الرقيقة المختلفة تماماً عن يد دومينيك القوية السمراء.

«نعم.. هذا ما أحاول قوله»

«وإن هذا الأسبوع الذي غبت فيه. هل كنت مع هذا الرجل»

ضحكت هيلين ثانية بهدوء.

«قابلته عندما كنت غائبة»

«فهمت. ويبدو أنك لا تريد أن تكون لك به أية علاقة»

«يا إلهي... الأمر ليس كذلك على الاطلاق»

سحبت هيلين يدها وأطلقت قبضتها

«والذي لا يعرف شيئاً عن الموضوع وأنا لا أريدك أن تخبره»

«لم لا؟»

«لأنه لن يفهم»

«ولكن من هو ذلك الرجل؟ ماذا تعرفين عنه وأين يعيش؟»

«أوه يا مايك لقد بدأت تفعل مثل والدي»

وقال مايك وهو يضغط على نفسه لئلا يفقد صبره

«حسناً.. تكلمي أنت في الموضوع بكلماتك»

«إنه كاتب»

«كاتب قصص؟»

«ليس بالضبط.. إنه يكتب كتباً غير روائية»

«هل أعرفه»

«لا أظن»

«لم لا؟ إني أعرف كثيراً من الكتاب»

«إنه لا يختلط بالمجتمع»

«من هو؟»

«لا أستطيع أن أخبرك»

«لم لا؟ بحق السماء! هيلين، أنت تعرفين أن أي شيء تخبريني به سأبقيه طيّ الكتمان وإلا ما كنت بدأت أصلاً أن تقصي عليّ ما حدث»

«أعرف. ولكن هذا مختلف.. لقد وعدته»

واسترخى مايك في كرسيه وقال بحسم:

«إنه متزوج»

قالت هيلين وهي تفحص خاتم الماس في يدها:

«حسناً على الأقل أنت تعرف الموقف الآن»

«ليس بما فيه الكفاية. إنك تقولين أنك قابلت أحداً وأنت مسافرة. وأن هذا الشخص يخيفك! ماذا تعنين بذلك؟ هل تحبينه؟»

ترددت «هيلين» ثم قالت:

«وهل تفترض أني أحبه؟»

قال «مايك» بصبر نافد:

«طالما لا تريدين إخباري»

«قد يكون هذا غريباً يا «مايك» ولكني أظن أنه يميل إليّ كثيراً»

فعكس وجه «مايك» اندهاشه:

«هيلين» هذا يصبح أكثر جنوناً كل لحظة»

«لماذا؟»

«كيف وقعت في حب ذلك الرجل إذا كان هو لا يميل إليك؟»

قالت «هيلين» بأسف:

«بسهولة جداً للأسف»

ورد «مايك» وهو يمسك يدها:

«آه يا «هيلين».. ألا تظنين أن كل ذلك خيال أكثر من اللازم؟ أقصد أنك قابلت رجلاً انجذبت إليه وظننت أنك وقعت في حبه ولكن يبدو أن كل شيء انتهى الآن.. أليس كذلك؟ ما الذي تستطيعين عمله؟ لا معنى للمخاطرة بصحتك بعدم الأكل والنوم»

«هل تظن أني لم أقل ذلك لنفسي مئات المرات؟»

واستمر يقول بإصرار:

«وفي جانب أنه من المحتمل أن يكون متزوجاً أو شيئاً من هذا القبيل. هل فكرت في هذا الاحتمال؟ في كل حال لابد أن هناك امرأة في الموضوع»

قالت «هيلين» بتأكيد:

«إنه ليس متزوجاً»

«قد يكون له خطيبة»

«لا»

«كيف يمكنك أن تتأكدي من ذلك؟»

«لأني أقمت في منزله»

وبعد أن نطقت بتلك الكلمات تمنت لو أنها لم تفعل. كان «مايك» يحملق فيها غير مصدق ما تقول كأنه لم يرها من قبل. أحست بالمرارة في حلقها.

ردد «مايك» بعدم تصديق:

«أقمت في منزله؟ كيف يمكن أن تفعلي ذلك بحق السماء؟»

وهزت «هيلين» رأسها:

«آه يا «مايك».. أرجوك لا تسألني. أرجوك»

«هل عشت معه؟»

«إذا كنت تقصد كزوجين فالجواب لا»

بدا عليه شيء من الارتياح ثم استمر قائلاً:

«ولكن كان هناك علاقة ما بينكما أليس كذلك؟»

«لا أستطيع أن أقول ذلك»

فتنفس بعمق:

«آه يا «هيلين» لم لا تخبرينني بالحقيقة؟ قد أستطيع مساعدتك»

«حسناً.. سأحاول أن أخبرك بقدر ما أستطيع»

وهز «مايك» رأسه موافقاً واستطردت تقول:

«لقد توقفت سيارتي في العاصفة الثلجية»

«بأية عاصفة؟»

«بالعاصفة التي واجهتني وأنا أقود سيارتي»

«وأين ذهبت فعلاً؟ إلى منطقة البحيرات؟»

«نعم وكما قلت توقفت سيارتي وبدا أن هذا الرجل لمساعدتي»

«لقد فهمت»

«ثم عرض أن يأويني تلك الليلة وقبلت»

«واستمري»

«وفي الصباح كان الجو سيئاً.. فبقيت في منزله»

«بمفردك مع هذا الرجل؟»

«لا ليس بمفردي.. كان لديه خادم.. كنا ثلاثة»

«وبقيت كل الأسبوع بمنزله»

«نعم»

«ورقصت في عيده»

«نعم»

«ولكن لماذا عدت»

«لأنه طلب مني أن أذهب»

نظر مايك إليها.

«يا إلهي! لماذا؟ ماذا فعلت»

لم تستطع هيلين أن تقابل نظرته.

«لم أفعل شيئاً. لقد أخبرتك بما حدث»

«بل قصة معينة عما حدث»

«ماذا تقصد»

«يا هيلين... لماذا يطلب منك هذا الرجل أن تبقي في منزله إذا كنت لا تعجبينه؟ ثم لماذا يطلب منك فجأة أن تذهبي؟ إن هذا غير مفهوم. هل كان جذاباً جداً»

فتنهدت هيلين.

«إنه يعرج، وهذا يسبب كثيراً من المشاكل»

«هل هو كسيح؟»

«ليس بالضبط، إنه يحتاج للراحة»

«وهذا هو الرجل الذي رقصت في عيده؟»

كان مايك مندهشاً جداً وأضاف:

«تقولين أنه لا يميل إليك وهو كسيح أيضاً فوق كل شيء... يا إلهي هيلين لم أكن أتصور أن...»

نظرت إليه هيلين.

«أعرف ما تحاول أن تقوله يا مايك... إنك لا تستطيع أن تتصور كيف أجد مثل هذا الرجل جذاباً بينما أستطيع أن أتزوج شخصاً بكامل صحته ورصيد كبير في البنك فوق ذلك»

طريقة»

قالت هيلين وهي تهز كتفيها باستسلام:

«أعرف، أن هذا سيكون شعور والدي بالضبط لو أخبرته»

«هذا طبيعي»

وبدا عليه عدم الإدراك الكامل، فقالت:

«ولذلك لم أخبره»

وهز مايك رأسه بالموافقة.

«لقد بدأت أفهم»

أخذ يفكر لحظات فيما قالته ثم قال:

«أخبريني يا هيلين، هذه العلاقة التي كانت بينك وبين هذا الرجل، هل هي علاقة عاطفية؟»

«يمكن أن تسميها كذلك»

«ولكنه لم يكن مهتماً»

«لا»

«هل أنت متأكدة من ذلك؟»

قالت بيأس:

«طلب مني أن أذهب، أليس هذا كافياً؟»

«نعم ولكن ألم تفكري في أن السبب قد يكون شعوره بعجزه؟»

فحدقت فيه هيلين.

«ماذا تقصد؟»

«من الممكن أن شعوره بالعجز كبير لدرجة تمنعه أن يطلب من أحد مشاركته حياته»

«لا، لا»

رفضت هيلين أن تفكر في هذا الاحتمال الجديد القلق، إنه ببساطة غير ممكن، إن مايك لا يعرف جميع الحقائق فكيف يمكن أن يعطي تفسيراً معقولاً؟ على سبيل المثال فهو لا يعلم أن دومينيك لم يدعها للبقاء في منزله

ولكنه حبسها فيه. وهو لا يعلم أنه منذ ذلك الحادث الرهيب الذي قتل فيه شقيقه رأى لاصابته وفقي «دومينيك» كاظمة الشبه. وأخيراً لا يعلم أن «دومينيك» كان يجري في تلك الليلة الأخيرة أن ... ولم يمنعه من ذلك إلا اعترافها القاضي بحبها له. هذا الحب الذي رفضه على الفور - لا. إن «دومينيك» ليس عاجزاً بأية حال.

«ومتى ستطلقون الآن؟»

تشقق صوت «مايك» من أعماقها

«لا شيء على ما أظن»

«هل تدركين أن والدك مازال مصمماً على أن يعرف أين كنت؟»

فكانت عيناها.

«هل أنت بالفعل على طلب منك أن تحاول أن تعرف؟»

قال بصراحة.

«نعم»

وهزت «هيلين» رأسها

«لقد خنت والدك»

وأمسك يديها بحنان.

«هل تظنين أنك تستطيعين أن تثقي بي - أليس كذلك؟»

قالت وهي تبتسم قليلاً

«نعم أعلم ولولا ذلك ما كنت هنا»

٩ - الزيارة

ورغم أن «هيلين» رفضت اقتراح «مايك» بأن «دومينيك» قد تكون لديه أسباب بعينه يطلب منها الرحيل، وجدت نفسها في الأيام القليلة التالية تفكر باستمرار في هذا الاحتمال.

خطط كثيرة تراءت على ذهنها ولكنها استبعدتها ولم تستطع أن تصل إلى قرار إلا عندما عرفت رأي «أرابيل». كان ذلك صباح أحد الأيام بعد أسبوع من عودتها. كان والدها قد انصرف إلى مكتبه وجلست هي و«أرابيل» تشربان القهوة وقالت بلطف:

«لقد تبدين في أسوأ حال. بحق السماء يا «هيلين» ألا تعني لرؤية هذا الرجل أيا كان؟»

«أي رجل؟»

«أوه لا تحاولي في هذا الكلام»

وأخذت «أرابيل» سيكارة

«هذا الرجل الذي يجعلك لا تنامين. لا داعي الآن لتظاهري بغير ذلك - أنا أعرف الأعراض»

ونظرت «هيلين» إلى يديها

«هل طلب والدي منك أن تحدثيني في هذا الأمر يا «أرابيل»؟»

«بالطبع لا - هل تظنين أن والدك يتصور أني أستطيع التأثير عليك في أي شيء؟»

«لا أظن ذلك»

«إذن لماذا لا تطلبين لزوجتك؟ لا بد أنه رجل له قيمته. إنني لم أره بهذا الشكل أبداً».

تنهدت هيلين وقالت:

«إنك تجعلين الأمر يبدو سهلاً».

«أليس هو كذلك؟ ما المانع؟ هل هو متزوج؟»

«لا».

«إذن ما الذي يمنعك؟»

نظرت هيلين إلى زوجة أبيها وقالت بهدوء وقد وصلت إلى قرار:

«لا شيء... لا شيء أبداً».

وابتسمت إيزابيل:

«هل أفهم أنك ستمضين بضعة أيام أخرى؟»

«افهمي ما تريدينه».

«على أي حال لا تشغلي بالك... سأخبر فيليب أنك ذهبت لقضاء بضعة أيام مع إحدى صديقاتك... ما رأيك في ذلك؟»

قالت هيلين بسخرية وهي تقف:

«إنه كالعادة».

وضحكت إيزابيل:

«يا عزيزتي... أريدك فقط أن تكوني سعيدة».

«شكراً. وجيداً منك أيضاً».

«إنه احتمال كبير».

هزت هيلين رأسها وخرجت من الغرفة. إيزابيل المرأة رأيها بصراحة في أي حال إذا كانت تستطيع أن تهدئ شكوك والدها فهذا شيء حسن.

كان الوقت يقترب من موعد الغداء عندما استطاعت هيلين أن تخرج ثانية رحلتها إلى هوكسلي في الشمال.

ووصلت هوكسلي حوالي الغروب وبينما كانت تسير في القرية كانت تبحث بعينيها عن فندق صغير قد يستقبل زوار الليل. هناك فندق واحد وهو

فندق البجعة، وقد أخذت مشرفة بذلك من باب الاحتياط. وزمت شفتيها هل يحتمل أن يمنعها دومينيك من دخول المنزل بعد أن سافرت كل هذه المسافة؟ هل يرفض مقابلتها؟

كان من السهل أن تجد المنزل القديم في ضوء النهار. لكن ضوء النهار لن يستمر طويلاً. زادت سرعتها وأخيراً وصلت إلى الباب الأمامي. لم يكن هناك أي علامة من علامات الحياة وهي تقترب من المنزل. لا دخان يتصاعد من المداخن ولا صوت للحيوانات من الخلف.

أوقفت السيارة وخرجت منها وهي ترتعش وتنظر إلى النوافذ الفارغة.

كانت تريد أن تدير المقبض وتفتح الباب. لكن فكرة أن شيئاً قد تكون وراءه منعتها وبدلاً من ذلك طرقت الباب ووقفت تنتظر بصبر أن يفتح بوث. ولكن أحداً لم يرد. تردد صوت طرقها في المبنى الخالي فتغشيها موجة من خيبة الأمل غير المتوقعة... كان افتراضها الأول صحيحاً... إن المنزل مهجور... لقد رحلوا.

حاولت أن تفتح الباب بعنف أملاً ضئيلاً أن تكون الخطة... ولكنه كان مغلقاً بإحكام. وجولة سريعة في الفناء الخلفي أكدت لها أن الحيوانات غير موجودة أيضاً. ولكن إلى أين؟ ومتى؟ ولماذا؟ تنهدت بخيبة أمل. هل تصور أنها ستذهب وتغير رأيها من مكانه؟

بشعور من الاكتئاب عادت إلى السيارة. ومرت بها سيارة واحدة في طريق عودتها. سيارة رمادية عادية لكن راكبها كان قصيراً وبديناً وأشقر ولا يشبه أبداً دومينيك لايول أو بوث.

رحب مدير فندق البجعة بها وبعد أن دخلت غرفتها نزلت لتتناول عشاءها في غرفة الطعام. لم يكن هناك إلا نزيل واحد آخر كان رجلاً قصيراً أشقر له شارب. كانت شبه متأكدة أنه الرجل نفسه الذي رأته من قبل عندما تركت المنزل. لكنها كانت مشغولة بالتفكير في أشياء أخرى فلم تلق بالاً إلى ذلك الشخص... بعد أن انتهت من طعامها حاولت التحدث مع المدير قائلة:

«أخبرني... هل ذلك المنزل في أعلى الطريق... القريب من هنا...

«هل الضحيتين منزل "أفيرون" يا أستاذ»

«إنما كان هذا الاسم مبنى قديم ولكنه لطيف»

«إنه هو يا آنسة هل أنت مهتمة به؟»

«لا.. حسنًا.. أظن ذلك»

هز المدير رأسه بأسف:

«ومبنيه خاليًا ولكنه ليس المبيع»

«ليس المبيع؟»

«لا. الشخص الذي يملكه مسافر هذا كل ما في الأمر سمعت أنه ذهب إلى المستشفى»

«المستشفى؟»

وصاحت "هيلين" بدون تفكير لم أجبرت نفسها أن تستريح وتبتسم بالعمد.. هذا مؤسف هل هو أمر خطير؟»

«لا أستطيع أن أعرف بالضبط يا آنسة.. لم تكن زيارتها كثيرة مؤخرًا»

«نعم معه شخص آخر اسمه "رولف" كان يحضر إلى القرية وإن كان هذا لا يهمك يا أستاذ»

«أوه.. إنه يهمني.. السنة»

نظر إليها المدير نظرة غريبة:

«ولماذا تعرفين هذا الشخص؟»

أخفت "هيلين" وجهها في فنجان القهوة وهزت رأسها بشدة بالنفي. واستطرد المدير قائلاً:

«في أي حال أتوقع أنهما سيعودان. ليس هناك أمل كبير في أن يبيعا المنزل»

«لا»

وكانت "هيلين" تسأل نفسها: كيف تسرع سؤالها التالي:

«يبدو من المؤسف أن يبقى المنزل خاليًا ولكن لماذا لم يبق "رولف"؟ كنت أظن أنه يبقى في المنزل بينما الضحية في المستشفى أو كانا سيعودان»

«آه.. نعم. ولكن كما سمعت ذهبا إلى "لندن".. من الجائز أن هذا الشخص كان يجب أن يدخل المستشفى هناك»

«لندن؟»

شعرت "هيلين" بالخجل. جاءت كل هذه المسافة إلى هنا و "دومينيك" "رولف" في إحدى مستشفيات "لندن". ولكن لماذا؟ ماذا حدث له؟ شعرت أنها تريد أن تأخذ سيارتها وتسرع عائدة إلى "لندن" ولكنها بالطبع لا تستطيع ذلك.. تركها المدير وذهب ليحادث النزيل الآخر فقامت وصعدت إلى حجرتها. ستذهب لتنام مبكرًا وفي الغد ستغادر الفندق بعد طلوع النهار.

ولأول مرة منذ عدة أسابيع نامت نومًا عميقًا. كانت متأكدة أن ذلك لأنها كانت تشعر بأنها مرهقة.

ولكن في اليوم التالي شعرت بالنعاس وعادت إلى المدينة بحواس أكثر

كانت مستلقية تنصت في كرسيها بعد أن ألقتها مبتعدًا من كثرة البحث في دليل التليفون عندما دخل "والدها" فنظرت إليه نظرة استنكارية فرمقته في حالة من الغضب الشديد.

«ماذا تفعلين بحق السماء؟»

سألها وهو يدفع أحد أدلة التليفون الضخمة التي تركتها على السجادة بقدمه.

وتنهدت "هيلين" وقالت بهدوء:

«أجري مكالمات تليفونية»

«أرى ذلك.. من تطلبين؟»

«هل هذا مهم؟ ألا أستطيع أن أجري مكالمة تليفونية قبل أن أستأذنك؟»

«لا تكوني وقحة»

ودفع "والدها" يديه في جيبي بنطلونه.

«ماذا تبحثين إلى "مركسير" أيس؟»

وانتحبت "هيلين" فمها في حقيبة

«كيف عرفت؟ أبي.. لا يمكن أن تطلب من أحد أن يمنعني»

«لم لا؟ هناك أمر يحدث منذ ثلاثة أسابيع»

كان هذا رد والدها بالاقتضاب.

وارتعشت شفتا «هيلين».

«أفهم»

وقف والدها أمامها ونظر إليها بصبر نافد.

«هل ستخبرينني لماذا ذهبت إلى «مركسمين»؟ أم أخبرك أنا؟»

«أنت تعلم»

«أظن ذلك»

كان والدها يتمشى بعصبية.

«أظن أنك ذهبت لمقابلة رجل كنت تظنين أنه يقيم في منزل «السورت» «وصديقك» «لابيرل»»

كانت «هيلين» ترتجف.

«أوه يا والدي! لماذا لا تترك الأمور تسير كما هي؟»

«يا «هيلين» أنت ابنتي الوحيدة. هل تظنين أني سأجلس هادئاً وأتركك تحطمين حياتك - حياتك التي خططتها لك؟»

«أنا أبلغ الثانية والعشرين يا والدي»

«وما أهمية ذلك - إنك ما زلت ابنتي ومن حقي أن أعرف ماذا تفعلين»

«يا والدي إنك لا تفهم»

«أفهم جيداً الآن - ماذا كنت تأملين أن تلتقي بصديقك «لابيرل» - هل هو الرجل الذي قضيت معه ذلك الأسبوع؟»

«هل هناك فائدة من الانكار؟»

«لا أظن - إن «باركلاي» كفء جداً»

«لا بد أنه ذلك الشخص المجهول الذي كان في المطعم الليلة الماضية»

«نعم أظن أنك تستطيعين أن تصفيه بذلك الوصف. كل المخبرين الخصوصيين يجب أن يكونوا كذلك - أشخاص مجهولين. لأن مهنتهم تتطلب ذلك فمن غير المفيد لهم أن يلاحظهم الناس»

«نعم أظن ذلك»

«والآن لم تجديه»

«لا»

«هذا ليس غريباً يا أبي. إنه موجود هنا في لندن»

طرفت عينا «هيلين». فقد خطر لها خاطر.

«هل تعرف أين هو في لندن؟»

«ربما أعرف»

واعتدلت «هيلين» في جلستها.

«أوه يا والدي أرجوك - أين هو؟»

قطب والدها.

«ماذا أخبرك؟»

«أرجوك»

«حسناً سأخبرك - إنه في شقة خاصة»

«كيف عرفت ذلك؟»

«باركلاي. أكلفه منذ قليل يا عزيزتي. سأل في مكتب البريد عن العنوان الذي أرسل إليه مكاتباته»

وأطبقت «هيلين» شفتيها.

«يا إلهي! لماذا لم أفكر في هذا؟»

«أشك في أنهم كانوا سيخبروك. من المحتمل أن بطاقة المخبر الخاص تبدو رسمية لهذه الدرجة»

وهزت «هيلين» رأسها.

«لا بد أن أراه»

«لا أظن أن هذه فكرة حسنة»

«لا تظن؟»

وقامت «هيلين».

«يا أبي - إذا لم تخبرني أين هو سأخرج من هذا المنزل ولن تراني ثانية»

«هيلين! هيلين! بحق السماء لا تتصرفي كطفلة غبية! ماذا يعني هذا الرجل

«لا يزال بالنسبة إليك! وماذا تعنين بالنسبة إليه؟ كيف تعرفت عليه؟»

«وإذا أخبرتك هل ستخبرني أين هو؟»

أخذ والدها نفساً ثم أجاب:

«حسناً، بشرط أن تخبريني بالحقيقة كلها».

تردّدت «هيلين» ثم غاصت في كرسيها وأخذت تحكي بعض الأحداث التي أدت للقائها بـ«دومينيك»، أخبرته عن العاصفة الثلجية وتوقف سيارتها ثم الظروف المزعجة التي أدت لمجيئها معه إلى منزله، ثم كيف كان وجهه مألوفاً لديها وكيف تعرفت عليه.

في هذه النقطة قاطعها والدها قائلاً:

«هل تقصدين أن هذا الرجل هو «دومينيك لايزل» بطل السباق؟»

وكان يبدو مذهولاً.

أكدت «هيلين»:

[illegible]

[illegible]

وهز رأسه.

«يا إلهي، استمري».

استمرت «هيلين» بحماس أكبر الآن بعدما شعرت أن عداء والدها قد خف لحد ما. بالطبع كان معجباً بـ«دومينيك لايزل»... هل من الممكن أنه ما زال معجباً به؟

لم تذكر التفاصيل في علاقتهما وإن كانت قد لمحت إلى ما حدث. وعندما أنهت قصتها فقط أطلق والدها تنهداً صغيراً

«يا إلهي، أي موقف».

«والآن هل تفهم لماذا لم أستطع أن أخبرك؟»

«كان يمكن أن تثقي بي».

«هل كنت أستطيع حقاً؟»

ونظرت إليه «هيلين» بشك فبدا عليه الخجل.

«هل لديك بعض الثقة بي؟ ألا تثقي بي، ولكن يا «هيلين» «دومينيك لايزل» لا بد أنه يبلغ الأربعين عاماً تقريباً».

وافقت بهز رأسها.

«أظن أنه يبلغ الثامنة والثلاثين ولكن ما أهمية ذلك؟»

هز والدها رأسه مرة ثانية.

«إنه كبير بالنسبة إليك. إلى جانب أنك تقولين إنه كسيح».

«أبي يا والدي أرجوك لا تستعمل هذه الكلمة، إن به عرجاً فقط. هل تظن أن هذا يهمني، حتى لو كان سيمضي حياته على كرسي فإنني سأستمر أحبه».

ذهب «فيليب» ليسكب لنفسه كأساً، وعندما رفع الكأس في سؤال صامت هزت رأسها بالنفي.

«لا، أشكرك، لا أريد. والآن هل ستخبرني أين هو؟»

«حسناً... حالاً».

ابتلع والدها محتوى كأسه ثم قال:

«هل تظنين أنه ما زال في المستشفى؟»

«لا... هل تعلم أنت؟»

«لا، إن أخبارنا لم تصل إلى هذه الدرجة وقد طلبت من «باركلاي» أن يتوقف حالاً».

«الحمد لله».

«لماذا تحمدين؟»

«أبي، يا والدي، ماذا سيكون شعوره إذا اكتشف أنك كنت تتجسس عليه؟ سيظن أني أخبرتك».

«لكنك أخبرتني».

«وأنك تعلم ما أعني».

تحركت «هيلين» بعصبية قلقة.

«يا والدي أخبرني أين هو».

«حسناً».

سحب والدها بطاقة من جيبه الداخلي:

«هذه هي العيادة ـ مديرها هو الدكتور جورج جوهانسن لا أعرف شيئاً عنه سوى أنه مشهور بأنه أخصائي جراحة عظام».

فاحتجت لورا هيلين:

«أخصائي جراحة عظام! هل تظن أنه دخل هذه العيادة لاجراء عملية جراحية في العظام؟»

«كيف أعلم! إذا كنت مصممة على رؤيته فالأفضل أن تذهبي وتري بنفسك».

فوافقت هيلين وقد أصابها الدوار.

«نعم ـ نعم سأفعل ذلك».

واتجهت نحو الباب.

«أشكرك يا والدي».

وأحنى فيليب كتفيه بحنين:

«لا تشكريني ـ أنا لا أعد بشيء ـ ولكن إذا كانت رؤية ذلك الرجل ستعيدك إلى الحياة فأنا مستعد لذلك».

وترددت هيلين لحظة وهي تريد أن تضيف شيئاً ولكنها هزت رأسها وانصرفت.

وكانت عيادة جوهانسن في شارع هارلي. كانت فيما مضى منزلاً فخماً أما الآن فإن طوابقه الثلاثة تحولت إلى مستشفى خاص مجهز تجهيزاً فاخراً. صرفت هيلين سيارة الأجرة وصعدت السلم إلى الباب. ضغطت على جرس صغير. وقفت تنظر حولها بفضول محاولة ألا تفكر في الأسباب التي دفعتها إلى الحضور.

وكانت الزهور تغطي حائطاً وتخفف الجو الرسمي في غرفة الاستقبال. وبدد عبيرها رائحة العيادة الطبية. وكانت الصالة التي يؤدي إليها السلم مغطاة بسجادة خضراء فاخرة. وحاولت هيلين أن تدعي أنها لا تختلف عن الفندق.

«هيلين».

قطع عليها أفكارها هذا النداء المصدوم فاستدارت لتجد بولت يجتاز السلالم القليلة التي تفصله عنها.

وقالت بصوت مهتز:

«أوه بولت! بولت هل دومينيك هنا؟»

كان بولت يبدو في شكل رسمي غير مألوف وهو يلبس حلة رمادية ولكنه عندما رأى القلق على وجهها قال بهدوء:

«نعم إنه هنا».

والتفتت هيلين إليه وهي تنظر باستعطاف.

«كيف حاله ولماذا هو هنا؟ بولت هل أصابه التعب بعد أن عاد؟»

نظر بولت حوله.

«هل قابلت أي شخص في العيادة؟»

«لا لم يكن هناك أحد ـ ضغطت على الجرس ولكن لم يأت أحد».

ونظر بولت إلى ساعته.

«إنه موعد النزول الثاني ـ الشاي يقدم للمرضى الساعة الخامسة. أظن أن الجميع مشغولون».

أشار إلى غرفة كتب عليها الزائرون:

«لندخل هنا ـ ليس من المحتمل أن يكون أحد منتظراً في هذا الوقت».

لم يكن هناك أحد فعلاً في غرفة الاستقبال وأغلق بولت الباب وعندما رفضت هيلين أن تجلس كما اقترح سألها:

«لماذا تفعلين هذا؟»

تنهدت هيلين:

«أريد أن أرى دومينيك».

«كيف علمت أنه هنا؟»

«إنها قصة طويلة ـ بولت أرجوك ـ أن نتكلم في الموضوع. لماذا أتى دومينيك إلى هنا؟»

دفع بولت يديه في جيبي بنطلونه وقال بحزن:

«قرر أن يجري العملية التي أرادها إجراءها له بعد الحادث».

«هل تقصد... هل تقصد أنه وافق على أن يرفع قطعة من العظم العصبي في

فقط.»

وكانت «هيلين» مذهولة.

«هل هو من هذا القبيل؟»

«أجل يا «بريت».»

ووضعت يدها على خدها.

«ومتى ستجري العملية؟»

«قريباً من أسبوعين.»

ولم تستطع «هيلين» أن تصدق.

«بعد أسبوعين! ولكن هذا... كان هذا...

بعد شفائك مباشرة تقريباً.»

ونظرت إليه «هيلين» باستغراب.

«لماذا قررت فجأة أن تجري العملية؟»

نظر «بريت» إلى طرف حذائه.

«لا أعلم حقيقة.»

وأمسكت «هيلين» بذراعه.

«أنا لا أصدقك! لابد أن «دومينيك» تدخلت في الأمر.»

وقال «بريت» بهدوء:

«وهل هذا يهمك؟»

لمعت عينا «هيلين».

«أظن ذلك.. إني أحبه.»

هز «بريت» رأسه.

«هل هذا صحيح؟»

«نعم نعم.. حسناً إذا كنت لا تريد أن تخبرني لماذا أجري العملية، على الأقل أخبرني إذا كانت قد نجحت.»

وتابع «بريت».

«لماذا أخبرك؟ يجب أن تصدقيني بلا تفسير يا أختاه.»

بالطبع.»

تطلعت «هيلين» حينها بقلق.. شعرت من نغمة صوته أن الجواب سلبي

واعترف رغماً عنه.

«لكن الجواب لا.. لم ينجحوا.»

وتهدلت كتفا «هيلين».

«هل تعرف السبب؟»

«لا أعرف الكلام الطبي، ولكن أساساً يبدو أنه إذا تركت العظمة تلتئم بدون إصلاح فإنها تصبح مصدراً دائماً لتشويه المفاصل الأخرى. وفي هذه الحالة أنني انتظرت الوقت بين الحادث وبين محاولة العلاج إلى أن يصبح الموقف أكثر صعوبة.»

«أوه يا «بريت».»

وشعرت «هيلين» بشعور غامر بالعطف على الرجل الذي أحبته.

«أوه أين هو؟ يجب أن أراه.»

فتنهد «بريت».

«لا أعرف إذا كان سيوافق أن يراك يا «هيلين».»

«لم لا؟»

«أظن أنك تعلمين لم لا.»

وسارت «هيلين» إلى الباب وقالت بوضوح:

«سأذهب لأراه ولن يمنعني أحد.»

عندما خرجت إلى القاعة مرة أخرى و«بريت» وراءها، كانت الممرضة أمام مكتبها ونظرت إلى «هيلين» باستغراب وأخذ «بريت» يشرح

«هذه صديقة السيد «لايول».. هل يمكن أن تراه الآن؟»

وشعرت «هيلين» بامتنان شديد لـ«بريت» لتدخله. كان تعريفه هذا يجعل وجودها أسهل. فابتسمت الممرضة ووافقت قائلة إنه لا مانع من ذلك. وفتحت الممرضة الشابة الباب وقالت بمرح

«زائر لك يا سيد «لايول».. تفضلي يا آنسة «جيمس».»

وبدت «هيلين» على من الخوف وهي تتوقع أن يأمرها «دومينيك» بالخروج لكن رغم أنه لم يبتسم لم يقل شيئاً يجرحها قبل خروج الممرضة من الغرفة. كان يجلس في السرير الضيق ويلبس بيجاما من الحرير الأحمر الغامق. لم تستطع «هيلين» أن ترفع بصرها عنه. كانت تشعر أنها لم تره من مدة طويلة، وأنها مشتاقة لرؤيته رغم أن الفترة لم تزد عن ثلاثة أسابيع. لم تلاحظ الغرفة الجميلة ذات السجادة الزرقاء والستائر وغطاء السرير ذا اللون الأزرق أيضاً، والتي تختلف عن أي غرفة في مستشفى عادي. وبعد خروج الممرضة تزحزحت «هيلين» فجأة عندما سمعت صوته وقد امتلأ بالغضب والسخرية:

«كيف يحق الجحيم وجدتني هنا؟»

تنفست باضطراب ثم تمتمت:

«مرحباً «دومينيك»! كيف حالك؟»

كان وجهه يعكس الضيق الشديد الذي يشعر به لتلاعب قلبها في صدرها:

«هل أرسل «بول» وراءك؟»

«لا، بالطبع».

اقتربت من السرير. كانت مشتاقة للمس يده السمراء. ونظرت إليه وهي تتذكر عندما خلعها بين يديه وكانت تشعر بقربه. وقالت لو احتضنتها مرة أخرى..

ثم قالت:

«دومينيك.. ذهبت إلى «هوكسفورد».. وعلمت أنك جئت إلى لندن»

«ماذا ذهبت إلى «هوكسفورد»؟»

للحظة تغلب فضوله على غضبه. فأجابت بانفعال:

«أردت أن أراك مرة ثانية».

وانبرت شفتاه:

«حقاً؟ لماذا؟»

«دومينيك. إنك تعلم لماذا».

لم تستطع أن تكمل كلامها.. مدت يدها لتمسك بيده، ولكنه سحبها بعيداً وقال بمرارة:

«أظن أنك ارتكبت خطأ.. أوضحت لك الموقف بما فيه الكفاية من عدة أسابيع ماضية.. لا يوجد بينك وبيني أي شيء».

حبست «هيلين» أنفاسها:

«أنا لا أصدق ذلك».

«لا يهمني إذا كنت تصدقيه أم لا».

وقطب حاجبيه:

«كيف وجدت هذا المستشفى؟ أنا لم أخبر أحداً إلا «بولت»».

«ليس «بولت»».

وتكلمت «هيلين» بعصبية:

«إذا كان لا بد أن تعرف فقد اتصل «أسامر» والذي من بيتي».

«ماذا تقصدين؟»

وبدأت تبكي:

«أسامر والذي عرفاً خاصاً لشخص.. أخبرته عن شخصية والدي حاول أن يخبرني عندما عدت أن أعرف أين كنت».

«ماذا لم أخبره بمسألة أنك كنت تعيشين في الفندق؟»

«فعلت ولكنه كان قد اتصل بالفندق الذي تركته وعلم أني غير موجودة فيه وبعد ذلك..»

وصدرت عنها حركة تعبر عن الاستسلام.

وأطبقت يدا «دومينيك»:

«وأظن أن ذلك الخبر وجد العيادة؟»

«نعم».

تنهدت «هيلين» وقالت:

«لكن والدي لم يعرف من أنت إلا.. إلا عندما أخبرته».

ضاقت عينا «دومينيك»:

«وأنت أخبرته؟»

«نعم اضطررت إلى ذلك. رفض أن يخبرني أين أنت إلا إذا..»

وحدق دومينيك في الجهة المقابلة.

«هل أنت متأكدة أن هذه هي الحقيقة كاملة؟»

«طبعاً نعم.»

«حسناً.. هل أنت متأكدة أن الخبر لم يتسرب إلى كريستوفر واكتشف أني في المستشفى؟ لم أستطع البقاء؟»

بدا على هيلين عدم الفهم.

«أنا لا أفهم.»

ونظر إليها مرة أخرى:

«ألا تفهمين أنهم سيفحصون أني في المستشفى الأسبوع الماضي؟»

«أنا.. حسناً نعم.»

«قلت ذلك.. وهل فكرت أني أخفيت ذلك عن أصدقائي؟»

«لا.. أنا..»

لكنها كانت قد فكرت في ذلك. خطرت لها هذه الفكرة بشكل غير محدد بعدما تكلمت مع بريت وكان يبدو ذلك على وجهها.

ثم سألته:

«مع من تحدثت منذ مجيئك إلى هنا؟»

«مطلقاً.. لا أحد.»

«حسناً.. أنا لا أريدك أن تناقشي أموري مع أي شخص.. هل تفهمين؟ أموري لا تخصك. أنا آسف لأن أخيب أملك ولكن عندما أخرج من هنا ليس لدي النية في أن أستعمل جروحي المشفاة في البحث عنك.»

«جروحك المشفاة؟»

«بالطبع.. إنك لا تعرفين. أليس كذلك؟ لقد نجحت العملية نجاحاً كاملاً. وسأصبح شخصاً جديداً تماماً بعد بضعة أشهر. ولكنك لن تكوني موجودة للمشاركة في الاحتفالات. وسأرسل إليك بطاقة من فلوريدا أو جامايكا أو أي مكان آخر.»

ابتسمت هيلين في الخفاء. ما الذي يقوله؟ العملية نجحت في تصحيح فقط!

«ولن يعرج عندما يخرج من المستشفى؟ ولكن بريت قال إنها فشلت وإن التشويه لا يمكن علاجه!»

وشعرت بالدوار. لا بد أن أحداً منهما يكذب.. ولكن أيهما؟ وفي أي حال على يمين دومينيك لا يريدها. أوضح ذلك تماماً. يجب أن تخرج من هنا وكلما أسرعت كان ذلك أفضل.

ونظرت إلى الباب. كان يبدو بعيداً ولكنها تستطيع أن تمالك نفسها حتى تخرج. يجب ألا تنهار أمامه.

وتحركت بعدم ثبات وعندما وصلت إلى الباب ووضعت يدها على المقبض قال:

«لا تقلقي لمعرفة بالأمر بوجودي. أنا متأكد أنك عندما تغيرين ما حدث سوف تستعيدين الاحتفاظ بهذه المعلومات لنفسك.»

ونظرت إليه هيلين نظرة أخيرة. إنها لن تفكر فيه بعد اليوم.

١٠ ـ هالو هيلين!

شعرت بالارتياح لأنها لم تقابل «بولت» وهي خارجة من المبنى.

أشارت لسيارة أجرة وهي في حالة أقرب إلى الذهول، وأعطت السائق عنوان منزل والدها ولكن في منتصف الطريق غيرت رأيها وطلبت منه أن يأخذها إلى شاطئ النهر. ولاحظت أن السائق ينظر إليها بطريقة غريبة عندما دفعت له أجره وفكرت بطريقة هيستيرية أنه يعتقدها ستنتحر.

راودتها هذه الفكرة وهي تنظر إلى المياه القاتمة أسفل الجسر. كانت تعلم أن والدها ينتظرها في المنزل الأمر الذي ملأها بالاكتئاب. لم تكن تريد الكلام عن المشهد الذي حدث بينها وبين «دومينيك». ولكن لم يكن أمامها مخرج.

أخذت تتجول بلا هدف بينما حركة المرور على أشدها ثم دخلت مقهى وطلبت بعض الشاي. الساعة حوالي السابعة مساء عادت إلى المنزل. وعندما توقف التاكسي أمام الباب قفز والدها هابطاً السلم وذهب ليساعدها ثم قائلاً وهو يمسك ذراعها:

«أين حبيبة الله هل تريدين أن أصاب بأزمة قلبية؟»

وارتعش قلبها. كانت تشعر دائماً أن والدها قوي لا يقهر.

وبدأت القول:

«آسفة إذا كنت سببت لك القلق.»

ولكنه قاطعها بحدة:

«كنت قلقاً عليك! هيلين ـ هل تلاحظين أنك تركت العيادة منذ أكثر من ساعة ونصف؟»

وقالت بتعب:

«أظن أنك اتصلت تليفونياً.»

«طبعاً اتصلت تليفونياً ـ أين كنت؟»

«ذهبت أتريض سيراً على الأقدام ـ على شاطئ النهر.»

«شاطئ النهر!»

واستقر لونه قليلاً.

«يا إلهي ـ هيلين هل كنت تفكرين...»

واعترفت بهدوء:

«نعم ـ فكرت ـ أوه يا أبي! إني تعيسة جداً.»

وانفجرت بالبكاء.

بعد حوالي ثلاث ساعات دق جرس الباب في منزل «جيمس» في ميدان بلجريفي. كانت «هيلين» في فراشها لكنها لم تكن نائمة رغم أن والدها أعطاها بعض الأقراص المنومة قبل أن يخرج مع «إيزابيل» إلى العشاء.

منذ عودتها إلى المنزل هذا المساء أخذت تراجع رأيها في والدها ـ كان طيباً ورقيقاً ومتفهماً ـ وأدركت أنه في الحقيقة مهتم بسعادتها كأي أب آخر.

وعندما دق الجرس مرة أخرى جلست في فراشها ونظرت إلى ساعتها. كانت الساعة حوالي العاشرة والنصف. من الذي يحتمل أن يأتي في مثل هذه الساعة من الليل؟ إلا إذا وقع حادث لوالدها وزوجته. خرجت من فراشها وارتدت ثوباً من الشيفون الأخضر الشفاف فوق قميص نومها. لم تكن «بيتي» موجودة.

وركضت هابطة السلم واجتازت القاعة ثم فتحت الباب نصف فتحة ونظرت قلقة. كان «دومينيك» يقف على عتبة الباب ويستند بثقل على عصا. وقال:

«هالو هيلين ـ هل أستطيع الدخول؟ أريد أن أتحدث معك.»

خطوط الإجهاد التي رأتها من قبل حول فمه تبدو أكثر عمقاً.

فتحت الباب ثم وقفت وراءه تخفي نفسها بينما يعرج إلى الداخل. انتبهت في هذه اللحظة فقط أن ملابسها شفافة أكثر من اللازم. فقالت بسرعة:

«سأذهب لأرتدي بعض الملابس»
«لا».
مد يده وأمسك بيدها وهي تمر بجانبه ثم نظر إليها نظرة فاحصة قائلاً:
«لا لا تذهبي – إنك تعجبينني كما أنت»
واحمر خداها.
«دومينيك»
«هل هناك مكان يمكن أن نتكلم فيه»
أجفل عندما اعترته نوبة من الألم وقال:
«هل أستطيع – أن أجلس»
«بالطبع – بالطبع. هل تريد أن تستند علي»
انسحبت مبتعدة – كانت قلقة عليه. ولكنه هز رأسه قائلاً:
«لا أظن أن هذا ضروري»
ولكنها لاحظت أنه يستند بثقل أكبر على عصاه وهي تقوده إلى غرفة الجلوس وأضاءت النور ثم وقفت بتردد إلى جانب الباب بينما سار هو نحو الأريكة الواسعة وجلس عليها بارتياح ظاهر ثم استدار لينظر إليها ورمى أخرى تعتريه بالفرح. وقالت بإصرار:
«لابد أن أذهب لأرتدي ملابس أخرى»
هز كتفيه الغير مكترث:
«حسناً إذا كنت تريدين أن تكوني محتشمة. ولكن ابتعدي فكرة جيدة عن جسم الرجل»
فضحكت ليه. هيلين. وقد نسيت موضوع مظهرها ثم سألت باضطراب:
«ماذا... لماذا أتيت إلى هنا»
استرخى على الوسائد وقد بدا على وجهه النحيف شيء من السخرية بعد أن استراح من هذه التي. وفكرت بيأس أنها لن تتعب أبداً من النظر إليه. إلى ملامحه السمراء وشعره الفضي الكثيف الذي يسقط باستمرار على جبهته وأنفه الذي تبدو فيه الرقة.

«تعال وسأخبرك»
ولم يكن في صوته أي سخرية الآن.
فتنفست هيلين قليلاً ثم توقفت – وقالت مرة أخرى:
«دومينيك...»
لكنه مال إلى الأمام وسحبها من يدها وجذبها إليه وعانقها ثم تركها إلا بعد مدة طويلة. شد نفسه واقفاً ونظر إليها قائلاً:
«ليس هنا يا هيلين – هل تريدين أن يجيء والدك إلى المنزل فيجدنا نتبادل الغرام»
واحمرت هيلين كأنها في غيبوبة:
«لا يهمني...»
ورفعت يدها تتلمس خده.
«أوه يا دومينيك إني أحبك»
أمسك دومينيك يدها وأخذ يقبل راحتها قائلاً:
«هيلين هل أنت متأكدة أنك تعلمين ما تفعلين»
هزت رأسها بالإيجاب ثم قامت مستندة على منكبيها وعيناها تظهران – إن شيئاً ما لا بد قد لفت نظرها – فقالت:
«دومينيك – هل طلب منك والدي أن تأتي إلى هنا»
فترك دومينيك يدها واعتدل في جلسته.
«لا بالعكس – لا أظن أنه يرحب بي كزوج لابنته حتى الآن»
قال بسخرية:
«أنا متأكد أنك ستحتقرين جداً – أوه يا هيلين إني أحبك – أنا متأكد لأنه لقد أدركت ذلك الآن»
«وأنت أحبتني»
ارتعشت شفتاها وارتعش كل جسمها بعاطفة أقوى منها
«أوه يا دومينيك. دومينيك لقد لم تخبرني»

وألقت نفسها بين ذراعيه ودفنت وجهها في عنقه وقد سالت دموع السعادة والارتياح على وجهها.

«ما هذا؟»

وكان وهو يحدثها عنه.

«لديها الكثير لتتكلم عنه وربما بقيت هكذا لن تستطيع الكلام».

فقالت وهي تمسح دموعها والبشر:

«حسناً ـ قابلت والدتي ـ أليس كذلك؟»

«نعم رأيت والدتك وكان مهماً جداً بالأخرى التي عليك. وربما أشعر شعوره فإنه كان يأمل أن تجدي شخصاً يناسبك أكثر مني كزوج».

ووضعت يدها على فمه.

«لا تكمل ـ أنا لا يهمني ما يأمل ـ إني أحبك أنت و... ولقد أخبرني بولت عن العملية».

قال بخشونة

«نعم، أعلم ذلك الآن».

نظرت إليه:

«كيف؟»

«كيف تتصورين؟ الشرف بولت».

«أرجو ألا تكون قد غضبت منه»

«ماذا تظنين؟»

وضحك عليها دومينيك إليه.

«يا إلهي حاولت يا هيلين أن أنكر نفسي هذا حاولت. لقد أخذت أكرر لنفسي أنني يجب ألا أربطك بشخص كسيح بقية حياتك... ولكن هذا انتهى».

هز رأسه ودفن وجهه في عنقها وشعرت بجسمه يرتجف.

«عندما أخبرني بولت أنك كنت تعلمين قبل أن تحضري لزواجي...»

وأمسك بوجهها بين يديه.

«لقد ظننت هنا أنك لم تحضري إلا عندما علمت أني سأصبح طبيعياً».

وألقت هيلين ذراعيها حول عنقه.

«إنك طبيعي أيها الـ دومينيك... حتى لو أنك لا يتوقف على كونك تسير بعرج أو بدون عرج... أنا لا يهمني هذا... أنا أحبك...»

وارتعشت شفتاها.

«رغم أني لا أعلم كذلك بعد الطريقة التي عاملتني بها».

«هل كنت بهذا السوء كل الوقت؟»

«لا، ليس كل الوقت».

وابتسمت وقد احمر خداها واعترف لها قائلاً:

«كنت أفقد سيطرتي على نفسي ذلك اليوم في غرفة السيرا ـ ما كان يجب أن أتركك تفعلين ما فعلته».

وضحك من خجلها

«عديني أنك ستفعلين ذلك مرة أخرى عندما نتزوج».

«كل يوم إذا شئته»

وحك هو رأسه.

«لا أظن أن بولت يجب أن يبقى في عمله حالياً إذا كان هذا لا يضايقك».

«بالطبع لا».

لم أشعر قط أسعد منها ـ كان كل شيء جميلاً لدرجة لم تستطع تصديقها

«هل يمكن أن نعيش هنا حيث نعيش؟»

«إنه بعيد جداً عن لندن».

«وماذا في ذلك؟»

«حسناً ألا تريدين أن تكوني أقرب للمدينة؟ أقصد...»

«هل تريد أن نعيش هنا في لندن؟»

«هيلين ـ أردت أنه إذا كان هذا ما ترغبين...»

«ولكن ماذا عنك أنت؟ أنت لا تريد حقاً أن نعيش هنا أليس كذلك؟»

«أنا لا أريد أن أبعدك عن أصدقائك وأسرتك».

فقالت ببساطة:

«وإنا أحب العيش في منزل الشيورت ـ ليس لدي ما أفعله أكثر من ذلك».

وسكت دومينيك لحظات ثم أبعدها عنه بإصرار قائلاً:

«قد يكون من الأفضل يا هيلين أن ترتدي ملابسك لأني أنوي الانتظار حتى أكلم والدك ولا أريده أن يصدم من يجري. قد لا يرضى».

وبعد ستة أشهر من ذلك كانت هيلين تهبط السلم في ذلك المنزل قرب هوكسبري وكانت الشمس تغمر تلك الأمسية. كانت تعلم أنها تبدو جميلة وخاصة في ثوبها الطويل العصري اللون الذي يخفي حملها عن أقرب الجيران. ونظرت أسفل السلم لكن والدها وزوجته لم يظهرا بعد. كان دومينيك يقف قرب المكتب يعد بعض المشروبات عندما دخلت. وكان يبدو نحيفاً وجذاباً وهو يرتدي سترة قاتمة اللون. كان قد شفي تماماً من العملية وأصبح الآن لا يحتاج العصا التي كان يستعملها في البداية. نظر إليها نظرة ناقدة وترك ما كان يفعله وذهب إليها واحتضنها بين ذراعيه. وقال:

«إنك تبدين جميلة جداً هذا المساء.. هل ستخبريهم؟»

وسحبت هيلين نفسها وهي تبتسم

«إنهم سيصبحون أجداداً بعد خمسة شهور. هل تظن أني يجب أن أقول؟»

فقال وهو يبدو مسروراً:

«قد لا تحتاجين إلى ذلك. أنا متأكد أن إيزابيل خمنت. ألم تلاحظي الطريقة التي كانت تنظر بها إليك بعد وصولهم مباشرة؟ إن البنطلونات والملابس الواسعة مازالت تبدو عادية عليك ولكن هناك شيئاً ما في مظهرك. لا أعرف ما هو..»

ووضعت هيلين على خديه:

«هل يضايقك هذا؟»

احتضنها بشدة أكثر ودفن رأسه في عنقها وهو يقول:

«حقيقة كنت أفضل أن أحتفظ بك لنفسي مدة أطول.. ولكن طفلنا أنسى المسؤول..»

وأمسك بها بشغف.

«لا لا أستطيع أن أقاومك... لم تدع أية احتياطات»

ولفت هيلين ذراعيها حول عنقه وقد أصبحت لا تفرح لما يقوله.

«ما أظن أن بولت سيكون مرتاحاً لمنزلك مرتبك»

ورفع دومينيك رأسه بضيق:

«يا لعنة.. أظن أن أستحم الآن.. ماذا عندنا في المنزل.. أنا لا أحب أن يشاركني أحد فيك».

وتنهدت هيلين برضى:

«يا عزيزي.. لقضينا أربعة أشهر بمفردين ومن الطبيعي أن والدي يريد أن يطمئن إلى أني سعيدة».

«ولماذا ستقولين لهم أني أخبرتك؟ أني أجعلك تعيسة؟»

وقالت وهي تفرد ذراعيها

«وهل تظن أنه سيصدقني في هذه الحال؟»

استقرت نظرة دومينيك على بطنها

«لا أظن».

ثم قال بسخرية:

«من حسن الحظ أن شيئاً لم يحدث هنا الآن. وإلا لأثارت بعض الشكوك».

وضحكت هيلين.. ثم سمعا طرقة على الباب فاستدارت وقالت:

«ادخل يا بولت».

دخل الخادم الضخم الغرفة على استحياء. ولكن الابتسامة العريضة التي نظر بها إلى هيلين كانت أبلغ تعبير عن موافقته.

وسأل بأدب:

«في أي وقت أقدم العشاء يا سيدي؟»

ونظر دومينيك إلى ساعته.

«ما أظن بعد حوالي نصف ساعة يا بولت.. أتذكر أنه على تذكرنا يا بولت على أنك ماهر في غسيل ثياب الأطفال؟»

ارتفع حاجبا بولت الكثيفان في دهشة

«أنا.. أنا.. أنت لا تقصد..»

وقالت هيلين وهي تتجه نحوه باسمة:

- نعم، ونحن نريدك أن تكون أول من يعرفه.

وبدا عليه السرور الشديد.. وصاح:

- أنا سعيد جداً.

www.liilas.com

ثم راح يشد على يد دومينيك بقوة [illegible]

- نشرب هذا الكأس، أنا لا أسمح [illegible]

رفع بول الكأس وقال بحرارة:

- إلى الجيل الجديد من أبناء لابول.

وشرب دومينيك معه هذا النخب.

The End